الكتاب الذى يحمل عنوان (العباس بن على (عليهما السلام) رائد الكرامة والفداء فى الإسلام) لمؤلفه باقر شريف القرشى، والذى يقع فى ٢٣٢ صفحة من الحجم الوزيرى، يتناول فى محتوياته جوانب مختلفة من نشأة وحياة وأخلاق هذه الشخصية العظيمة والتي هى نسخة مطابقة لأبيه أمير المؤمنين على بن أبى طالب وأخويه الإمامين الحسن والحسين وأخته الحوراء زينب (عليهم السلام)، حيث كان صورة منهم فى الخلق والسلوك والسيره، الكتاب يقع أساساً فى ستة فصول بارزة تتوزع عناوينها ومضامينها كالتالى:

الفصل ١

ولادته ونشأته

يتناول حياة العباس من النواحي التالية: ١- نسبه ٢- ولادته فى ٤ شعبان ٢٦ هـ ٣- تسميته ٤- كنيته ٥- طبيعة نشأته.

الفصل ٢

عناصره النفسية

يتضمن استعراضاً وافياً عن العناصر النفسية لشخصية العباس (عليه السلام) بدءاً من تقواه وإيمانه وصفاته الأخلاقية.

الفصل ٣

مع الأحداث

تناول دور سيدنا العباس فى مجمل وقائع الأحداث التى رافقت فترة حكومة أبيه الإمام على (عليه السلام)

الفصل ٤

كابوس رهيب

يستعرض خلاله مظاهر سياسة الظلم والاضطهاد للحكم الأموى الجائر.

الفصل ٥

مع الثورة الحسينية

ويتركز مضمونه على فصل قضية ثورة الحسين بكل صورها ومراحلها والدور الفعال والكبير الذى جسده العباس إلى جانب أخيه أبى الأحرار والثوار الإمام الحسين (ع).

ص: ١

الفصل ٦

إلى أرض الشهادة

ويتضمن تفاصيل المواجهة الميدانية التي خاضها الإمام الحسين (عليه السلام) في طف كربلاء والتي شارك في معظمها أخيه أبي الفضل العباس (عليه السلام).

الفصل ٧

الـحـرـب

ويتناول دور العباس وأخوته في الدفاع عن إمامه وعن عقائل النبوة، ومخدرات الرسالة، حيث كان أبو الفضل القوة الضاربة لمعسكر الإمام الحسين (ع)

ص: ٢

ولادته ونشأته

وقبل أن أتحدّث عن ولادة أبي الفضل العباس (عليه السلام) و نشأته أعرّض - بإيجاز - إلى نسبه الوضّاح، ذلك النسب الكريم الذى كان له الأثر التام فى بناء شخصيته العظيمة، وتكوين سلوكه المشرفّ القائم على الشرف والفضيلة وفيما يلي ذلك:

نسبه الوضّاح

ليس فى دنيا الأنساب نسب أسمى، ولا أرفع من نسب أبى الفضل فهو من صميم الأسرة العلوية، التى هى من أجلّ وأشرف الأسر التى عرفتها الإنسانية فى جميع أديانها، تلك الأسرة العريقة فى الشرف والمجد، التى أمّدت العالم العربى والإسلامى بعناصر الفضيلة، والتضحية فى سبيل الخير، وما ينفع الناس، وأضاءت الحياة العامة بروح التقوى، والإيمان، وهذا عرض موجز للأصول الكريمة التى تفرّع قمر بنى هاشم، وفخر عدنان منها.

الأب —

أمّا الأب الكريم لسيدنا العباس (عليه السلام) فهو الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام)، وصيّ رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وباب مدينة علمه، وختنه على حبيبته، وهو أول من آمن بالله، وصدّق رسوله وكان منه بمنزلة هارون من موسى، وهو بطل الإسلام، والمنافع الأول عن كلمة التوحيد، وقد قاتل الأقرين والأبعدين من أجل نشر رسالة الإسلام وإشاعة أهدافه العظيمة بين الناس، وقد تمثلت بهذا الإمام العظيم جميع فضائل الدنيا، فلا يدانيه أحد فى فضله وعلمه، وهو - بإجماع المسلمين - أثرى شخصية علمية فى مواهبه وعبقرياته بعد الرسول محمد (صلى الله عليه وآله)، وهو غنى عن البيان والتعريف، فقد استوعبت فضائله ومناقبه جميع لغات الأرض... ويكفى العباس شرفاً وفخراً أنّه فرع من دوحه الإمامة، وأخ لسبطين رسول الله (صلى الله عليه وآله).

الأم —

أمّا الأم الجليلة المكرّمة لأبى الفضل العباس (عليه السلام) فهى السيدة الزكية فاطمة بنت حزام بن خالد... وأبوها حزام من أعمدة الشرف فى العرب، ومن الشخصيات النابهة فى السخاء والشجاعة وقرى الأضياف، وأما أسرتها فهى من أجلّ الأسر العربية، وقد عرفت بالنجدة والشهامة، وقد اشتهر جماعة بالنبل والبسالة منهم:

١- عامر بن الطفيل:

وهو أخو عمرة الجدة الأولى لأمّ البنين، وكان من ألمع فرسان العرب في شدة بأسه، وقد ذاع اسمه في الأوساط العربية وغيرها، وبلغ من عظيم شهرته أن قيصر إذا قدم عليه وافد من العرب فإن كان بينه وبين عامر نسب عظم عنده، وبجله وأكرمه، وإلا أعرض عنه.

٢- عامر بن مالك:

وهو الجدّ الثاني للسيّدة أمّ البنين، وكان من فرسان العرب وشجعانهم ولقّب بملاعب الأسنة لشجاعته الفائقة، وفيه يقول الشاعر:

يلاعب أطراف الأسنة عامر فراح له حظّ الكتائب أجمع

وبالإضافة إلى شجاعته فقد كان من أباة الضيم، وحفظة الذمام ومراعاة العهد، ونقل المؤرّخون عنه بوادر كثيرة تدلّ على ذلك.

٣- الطفيل:

وهو والد عمرة الجدة الأولى لأمّ البنين كان من أشهر شجعان العرب، وله أشقاء من خيرة فرسان العرب، منهم ربيعة، وعبيدة، ومعاوية، ويقال لأمّهم (أمّ البنين) وقد وفدوا على النعمان بن المنذر فأرأوا عنده الربيع بن زياد العبسي، وكان عدوّاً وخصماً لهم، فاندفع لبيد وقد تميّز من الغيظ فخطب النعمان:

يا واهب الخير الجزيل من سعة نحن بـنو أمّ البنين الأربعة

ونحن خير عامر بن صعصعة المطعمون الجفنة المددعة

الضاربون الهام وسط الحيصعة إليك جاوزنا بلاداً مسبعة

تخبر عن هذا خبيراً فاسمعه مهلاً أبيت اللعن لا تأكل معه

فتأثر النعمان للربيع، وأقصاه عن مسامرتة، وقال له:

شردّ برحلك عنّي حيث شئت ولا تكثر علىّ ودع عنك الأباطيلا

قد قيل ذلك إن حقاً وان كذبا فما اعتذارك في شيء إذا قيلا

ودلّ ذلك على عظيم مكانتهم، وسموّ منزلتهم الاجتماعية عند النعمان فقد بادر إلى إقصاء سميره الربيع عن مسامرتة.

ص: ٤

٤- عروة بن عتبة:

وهو والد كبشة الجدة الثانية لأم البنين، وكان من الشخصيات البارزة في العالم العربي، وكان يفد على ملوك عصره، فيكرمونه، ويجزلون له العطاء، ويحسنون له الوفاة(١).

هؤلاء بعض الأعلام من أجداد السيدة الكريمة أم البنين، وقد عرفوا بالنزعات الكريمة، والصفات الرفيعة، وبحكم قانون الوراثة فقد انتقلت صفاتهم الشريفة إلى السيدة أم البنين ثم منها إلى أبنائها الممجدين.

قران الإمام بأم البنين:

ولما ثكل الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) بوفاة بضعة الرسول (صلى الله عليه وآله) وريحانته سيّدة نساء العالمين فاطمة الزهراء (عليهما السلام) ندب أخاه عقيلاً، وكان عالماً بأنساب العرب أن يخطب له امرأة قد ولدتها الفحول ليتزوجها لتلد غلاماً زكياً شجاعاً لينصر ولده أبا الشهداء في ميدان كربلاء(٢) فأشار عليه عقيل بالسيدة أم البنين الكلاية فإنه ليس في العرب من هو أشجع من أهلها، ولا أفرس، وكان لبيد الشاعر يقول فيهم: (نحن خير عامر بن صعصعة) فلا ينكر عليه أحد من العرب، ومن قومها ملاعب الأسنّة أبو براء الذي لم يعرف العرب مثله في الشجاعة(٣)، فندبه الإمام إلى خطبتها، وانبرى عقيل إلى أبيها فعرض عليه الأمر فأسرع فرحاً إليها فاستجابت باعتزاز وفخر، وزفت إلى الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام)، وقد رأى فيها العقل الراجح، والإيمان الوثيق وسمو الآداب، ومحاسن الصفات، فأعزّها، وأخلص لها كأعظم ما يكون الإخلاص.

•• رعايتها لسبطي النبي (صلى الله عليه وآله):

وقامت السيدة أم البنين برعاية سبطي رسول الله (صلى الله عليه وآله) وريحانتيه سيّدي شباب أهل الجنة الحسن والحسين (عليهما السلام)، وقد وجدا عندها من العطف والحنان ما عوضهما من الخسارة الأليمة التي مُنيبها بفقد أمهما سيّدة نساء العالمين فقد توفيت، وعمرها كعمر الزهور فقد ترك فقدها اللوعة والحزن في نفسيهما.

لقد كانت السيدة أم البنين تكنّ في نفسها من المودّة والحبّ للحسن والحسين (عليهما السلام) ما لا تكنّه لأولادها الذين كانوا ملء العين في كمالهم وآدابهم.

لقد قدّمت أم البنين أبناء رسول الله (صلى الله عليه وآله)، على أبنائها في الخدمة والرعاية، ولم يعرف التاريخ أن ضرة تخلص لأبناء ضرّتها وتقدّمهم على أبنائها سوى هذه السيدة الزكية، فقد كانت ترى ذلك واجباً دينياً لأن الله أمر بمودّتهما في كتابه الكريم، وهما وديعة رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وريحانتاه، وقد عرفت أم البنين ذلك فوفت بحقهما وقامت بخدمتهما خير قيام.

ص: ٥

•• مكائنها عند أهل البيت:

ولهذه السيّدة الزكية مكانة متميّزة عند أهل البيت (عليهم السلام)، فقد أكبروا إخلاصها وولاءها للإمام الحسين (عليه السلام)، وأكبروا تضحيات أبنائها المكرمين في سبيل سيّد الشهداء (عليه السلام)، يقول الشهيد الأول وهو من كبار فقهاء الإمامية:

(كانت أمّ البنين من النساء الفاضلات، العارفات بحقّ أهل البيت (عليهم السلام)، مخلصّة في ولائهم، ممحضّة في موذّتهم، ولها عندهم الجاه الوجيه، والمحلّ الرفيع، وقد زارتها زينب الكبرى بعد وصولها المدينة تعزيّها بأولادها الأربعة، كما كانت تعزيّها أيام العيد...)(٤).

إنّ زيارة حفيّدة الرسول (صلى الله عليه وآله) وشريكة الإمام الحسين (عليه السلام) في نهضته زينب الكبرى (عليها السلام) لأمّ البنين، ومواساتها لها بمصاها الأليم بفقد السادة الطيبين من أبنائها، مما يدلّ على أهميّة أمّ البنين وسموّ مكائنها عند أهل البيت (عليهم السلام).

•• مكائنها عند المسلمين:

وتحتلّ هذه السيّدة الجليلة مكانة مرموقة في نفوس المسلمين، ويعتقد الكثيرون إلى أنّ لها منزلة عظيمة عند الله، وأنّه ما التجأ إليها مكروب، وجعلها واسطة إلى الله تعالى إلا كشف عنه ما ألمّ به من المحن والخطوب، وهم يفرعون إليها إن ألمّت بهم كارثة من كوارث الزمن أو محنة من محن الأيام، ومن الطبيعي أن تكون لها هذه المنزلة الكريمة عند الله، فقد قدّمت في سبيله أفلاذ أكبادها، وجعلتهم قرابين لدينه.

الوليد العظيم

وكان أوّل مولود زكيّ للسيّدة أمّ البنين هو سيّدنا المعظّم أبو الفضل العباس (عليه السلام)، وقد ازدهرت يثرب، وأشرقت الدنيا بولادته وسرت موجات من الفرح والسرور بين أفراد الأسرة العلوية، فقد ولد قمرهم المشرق الذي أضاء سماء الدنيا بفضائله ومآثره، وأضاف إلى الهاشميين مجدداً خالداً وذكرًا ندياً عاطراً.

وحيثما بشرّ الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) بهذا المولود المبارك سارع إلى الدار فتناوله، وأوسعّه تقبيلاً، وأجرى عليه مراسيم الولادة الشرعية فأذّن في أذنه اليمنى، وأقام في اليسرى، لقد كان أوّل صوت قد اخترق سمعه صوت أبيه رائد الإيمان والتقوى في الأرض، وأنشودة ذلك الصوت.

(الله أكبر...).

(لا إله إلا الله).

وارتسمت هذه الكلمات العظيمة التي هي رسالة الأنبياء، وأنشودة المتقين في أعماق أبي الفضل، وانطبعت في دخائل ذاته، حتى صارت من أبرز عناصره، فتبني الدعوة إليها في مستقبل حياته، وتقطعت أوصاله في سبيلها.

وفي اليوم السابع من ولادة أبي الفضل (عليه السلام)، قام الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) بحلق شعره، والتصدق بزنته ذهباً أو فضة على المساكين وعق عنه بكبش، كما فعل ذلك مع الحسن والحسين (عليهما السلام) عملاً بالسنة الإسلامية.

سنة ولادته —

أفاد بعض المحققين أن أبا الفضل العباس (عليه السلام) ولد سنة (٢٦ هـ) في اليوم الرابع من شهر شعبان (٥).

— تسميته:

سَمِيَ الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) وليده المبارك (بالعباس) وقد استشف من وراء الغيب أنه سيكون بطلاً من أبطال الإسلام، وسيكون عبوساً في وجه المنكر والباطل، ومنطلق البسمات في وجه الخير، وكان كما تنبأ فقد كان عبوساً في ميادين الحروب التي أثارها القوى المعادية لأهل البيت (عليهم السلام)، فقد دمر كتائبها وجندل أبطالها، وخيم الموت على جميع قطعات الجيش في يوم كربلاء، ويقول الشاعر فيه:

عبست وجوه القوم خوف الموت والعبّاس فيهم ضاحك متبسّم

— كنيته:

وكُنِيَ سَيِّدَنَا الْعَبَّاسَ (عليه السلام) بما يلي:

١- أبو الفضل:

كُنِيَ بِذَلِكَ لِأَنَّ لَهُ وَلِذَا اسْمَهُ الْفَضْلَ، وَيَقُولُ فِي ذَلِكَ بَعْضُ مَنْ رَثَاهُ:

ص: ٧

أبا الفضل يا من أسس الفضل والإبا أبا الفضل إلا أن تكون له أبا

وطابقت هذه الكنية حقيقة ذاته العظيمة فلو لم يكن له ولد يسمّى بهذا الاسم، فهو - حقاً - أبو الفضل، ومصدره الفياض فقد أفاض في حياته ببرّه وعطائه على القاصدين لنبله وجوده، وبعد شهادته كان موثلاً وملجأ لكل ملهوف، فما استجار به أحد بنية صادقة إلا كشف الله ما ألمّ به من المحن والبلوى.

٢- أبو القاسم:

كنى بذلك لأنّ له ولداً اسمه (القاسم) وذكر بعض المؤرخين أنه استشهد معه يوم الطفّ، وقدمه قرباناً لدين الله، وفداءً لريحانة رسول الله (صلى الله عليه وآله).

- ألقابه:

أمّا الألقاب التي تضافى على الشخص فهي تحكى صفاته النفسية حسنة كانت أو سيئة، وقد أضيفت على أبا الفضل (عليه السلام) عدّة ألقاب رفيعة تتمّ عن نزاعته النفسية الطيبة، وما اتصف به من مكارم الأخلاق وهي:

١- قمر بنى هاشم:

كان العباس (عليه السلام) فى روعة بهائه، وجميل صورته آية من آيات الجمال، ولذلك لقبّ بقمر بنى هاشم، وكما كان قمرأ لأسرته العلوية الكريمة، فقد كان قمرأ فى دنيا الإسلام، فقد أضاء طريق الشهادة، وأثار مقاصدها لجميع المسلمين.

٢- السقاء:

وهو من أجلّ ألقابه، وأحبّها إليه، أمّا السبب فى إمضاء هذا اللقب الكريم عليه فهو لقيامه بسقاية عطاشى أهل البيت (عليهم السلام) حينما فرض الإرهابى المجرم ابن مرجانة الحصار على الماء، وأقام جيوشه على الفرات لتموت عطشاً ذرية النبىّ (صلى الله عليه وآله)، محرراً الإنسانية ومنقذها من ويلات الجاهلية... وقد قام بطل الإسلام أبو الفضل باقتحام الفرات عدّة مرّات، وسقى عطاشى أهل البيت، ومن كان معهم من الأنصار، وسنذكر تفصيل ذلك عند التعرّض لشهادته.

٣- بطل العلقمى:

أمّا العلقمى فهو اسم للنهر الذى استشهد على ضفافه أبو الفضل العباس (عليه السلام)، وكان محاطاً بقوى مكثفة من قبل ابن مرجانة لمنع ريحانة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وسيد شباب أهل الجنة، ومن كان معه من نساء وأطفال من شرب الماء، وقد استطاع أبو الفضل بعزمه الجبار، وبطولته النادرة أن يجندل الأبطال، ويهزم أقزام ذلك الجيش المنحطّ، ويحتلّ ذلك النهر،

ص: ٨

وقد قام بذلك عدّة مرّات، وفي المرّة الأخيرة استشهد على ضفاهه ومن ثمّ لُقّب ببطل العلقمى.

٤- حامل اللواء:

ومن ألقابه المشهورة (حامل اللواء) وهو أشرف لواء، إنّه لواء أبى الأحرار الإمام الحسين (عليه السلام)، وقد خصّه به دون أهل بيته وأصحابه، وذلك لما تتوفر فيه من القابليات العسكرية، ويعتبر منح اللواء فى ذلك العصر من أهمّ المناصب الحسّاسة فى الجيش وقد كان اللواء الذى تقلّده أبو الفضل يرفرف على رأس الإمام الحسين (عليه السلام) منذ أن خرج من يثرب حتّى انتهى إلى كربلاء، وقد قبضه بيد من حديد، فلم يسقط منه حتى قطعت يداه، وهوى صريعاً بجنب العلقمى.

٥- كبش الكتيبة:

وهو من الألقاب الكريمة التى تمنح إلى القائد الأعلى فى الجيش، الذى يقوم بحماية كتائب جيشه بحسن تدبير، وقوّة بأس، وقد أضفى هذا الوسام الرفيع على سيّدنا أبى الفضل، وذلك لما أبداه يوم الطفّ من الشجاعة والبسالة فى الذبّ والدفاع عن معسكر الإمام الحسين (عليه السلام)، فقد كان قوّة ضاربة فى معسكر أخيه، وصاعقة مرعبة ومدمّرة لجيوش الباطل.

٦- العميد:

وهو من الألقاب الجليلة فى الجيش التى تمنح لأبرز الأعضاء فى القيادة العسكرية، وقد قلّد أبو الفضل (عليه السلام) بهذا الوسام لأنّه كان عميد جيش أخيه أبى عبد الله، وقائد قوّاته المسلّحة فى يوم الطفّ.

٧- حامى الضعينة:

ومن الألقاب المشهورة لأبى الفضل (عليه السلام) (حامى الضعينة).

يقول السيّد جعفر الحلّى فى قصيدته العصماء التى رثاه بها:

حامى الضعينة أين منه ربيعة أم أين من عليا أبيه مكرم

وأما أضفى عليه هذا اللقب الكريم لقيامه بدور مشرّف فى رعاية مخدرات النبوة وعوائل الوحي، فقد بذل قصارى جهوده فى حمايتهم وحراستهم وخدمتهم، فكان هو الذى يقوم بترحيلهم، وأنزالهم من المحامل طيلة انتقالهم من يثرب إلى كربلاء.

ومن الجدير بالذكر أن هذا اللقب أطلق على بطل من شجعان العرب وفرسانهم وهو ربيعة بن مكرم، فقد قام بحماية طعنه، وأبلى فى ذلك بلاءاً حسناً (٦).

ص: ٩

٨- باب الحوائج:

وهذا من أكثر ألقابه شيوعاً، وانتشاراً بين الناس، فقد آمنوا وأيقنوا أنه ما قصده ذو حاجة بنية خالصة لإقضى الله حاجته، وما قصده مكروب إلا كشف الله ما ألمّ به من محن الأيام، وكوارث الزمان، وكان ولدى محمد الحسين ممن التجأ إليه حينما دهمته كارثة ففرّج الله عنه.

إنّ أبا الفضل نفحة من رحمت الله، وباب من أبوابه، ووسيلة من وسائله، وله عنده الجاه العظيم، وذلك لجهاده المقدّس في نصرة الإسلام، والذبّ عن أهدافه ومبادئه، وقيامه بنصرة ريحانة رسول الله (صلى الله عليه وآله) حتى استشهد في سبيله، هذه بعض ألقاب أبي الفضل، وهي تحكى بعض معالم شخصيته العظيمة وما انطوت عليه من محاسن الصفات ومكارم الأخلاق (٧).

ملامحه

أمّا ملامحه فقد كان صورة بارعة من صور الجمال، وقد لُقّب بقر بنى هاشم لروعة بهائه، وجمال طلّعه، وكان متكامل الجسم قد بدت عليه آثار البطولة والشجاعة، ووصفه الرواة بأنه كان وسيماً جميلاً، يركب الفرس المطهم (٨) ورجلاه يخطان في الأرض (٩).

تعويذ أمّ البنين له:

واستوعب حب العباس قلب أمّه الزكيّة، فكان عندها أعزّ من الحياة، وكانت تخاف عليه، وتخشى من أعين الحساد من أن تصيبه بأذى أو مكروه، وكانت تعوذه بالله، وتقول هذه الأبيات:

أعيذه بالواحد من عين كلّ حاسد

قائّمهم والقاعد مسلمهم والجاحد

صادرهم والوارد مولدهم والوالد (١٠)

مع أبيه

كان الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) يرعى ولده أبا الفضل في طفولته، ويعنى به كأشدّ ما تكون العناية فأفاض عليه مكونات

نفسه العظيمة العامرة بالإيمان والمثل العليا، وقد توسّم فيه أنه سيكون بطلاً من أبطال الإسلام، وسيسجّل للمسلمين صفحات مشرقة من العزّة والكرامة.

كان الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) يوسع العباس تقبيلاً، وقد احتلّ عواطفه وقلبه، ويقول المؤرّخون: إنّه أجلسه في حجره فشمّر العباس عن ساعديه، فجعل الإمام يقبلهما، وهو غارق في البكاء، فبهرت أمّ البنين، وراحت تقول للإمام:

(ما يبكيك؟)

فأجابها الإمام بصوت خافت حزين النبرات:

(نظرت إلى هذين الكفّين، وتذكّرت ما يجري عليهما..)

وسارعت أمّ البنين بلهفة قائلة:

(ماذا يجري عليهما؟)..

فأجابها الإمام بنبرات مليئة بالأسى والحزن قائلاً:

(إنّهما يقطعان من الزند..)

وكانت هذه الكلمات كصاعقة على أمّ البنين، فقد ذاب قلبها، وسارعت وهي مذهولة قائلة:

(لماذا يقطعان؟)..

وأخبرها الإمام (عليه السلام) بأنّهما إنّما يقطعان في نصرّة الإسلام والذبّ عن أخيه حامى شريعة الله ربحانة رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فأجهشت أمّ البنين في البكاء، وشاركتها من كانت معها من النساء لوعتها وحزنها(١١).

وخلّدت أمّ البنين إلى الصبر، وحمدت الله تعالى في أن يكون ولدها فدائاً لسبط رسول الله (صلى الله عليه وآله) وريحانته.

نشأته

نشأ أبو الفضل العباس (عليه السلام) نشأةً صالحةً كريمةً، فلمّا يظفر بها إنسان فقد نشأ في ظلال أبيه رائد العدالة الاجتماعية في الأرض، فغذّاه بعلومه وتقواه، وأشاع في نفسه النزعات الشريفة، والعادات الطيبة ليكون مثلاً عنه، وأنموذجاً لمثله، كما غرست أمّه السيّدة فاطمة في نفسه، جميع صفات الفضيلة والكمال، وغدّته بحبّ الخالق العظيم فجعلته في أيّام طفولته يتطلّع إلى مرضاته وطاعته، وظلّ ذلك ملازماً له طوال حياته.

ص: ١١

ولازم أبو الفضل أخويه السبطين ريحانتي رسول الله (صلى الله عليه وآله) الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة فكان يتلقى منهما قواعد الفضيلة، وأسس الآداب الرفيعة، وقد لازم بصورة خاصة أخاه أبا الشهداء الإمام الحسين (عليه السلام) فكان لا يفارقه في حله وترحاله، وقد تأثر بسلوكه، وانطبعت في قرارة نفسه مثله الكريمة وسجاياه الحميدة حتى صار صورة صادقة عنه يحكيه في مثله واتجاهاته، وقد أخلص له الإمام الحسين كأعظم ما يكون الإخلاص وقدمه على جميع أهل بيته لما رأى منه من الود الصادق له حتى فداه بنفسه.

إنّ المكونات التربوية الصالحة التي ظفر بها سيّدنا أبو الفضل العباس (عليه السلام) قد رفعتة إلى مستوى العظماء والمصلحين الذين غيروا مجرى تاريخ البشرية بما قدموه لها من التضحيات الهائلة في سبيل قضاياها المصيرية، وإنقاذها من ظلمات الذلّ والعبودية.

لقد نشأ أبو الفضل على التضحية والفداء من أجل إعلاء كلمة الحقّ، ورفع رسالة الإسلام الهادفة إلى تحرير إرادة الإنسان، وبناء مجتمع أفضل تسوده العدالة والمحبة، والإيتار، وقد تأثر العباس بهذه المبادئ العظيمة وناضل في سبيلها كأشدّ ما يكون النضال، فقد غرسها في أعماق نفسه، ودخائل ذاته، أبوه الإمام أمير المؤمنين وأخواه الحسن والحسين (عليهم السلام)، هؤلاء العظام الذين حملوا مشعل الحرية والكرامة، وفتحوا الآفاق المشرقة لجميع شعوب العالم وأمم الأرض من أجل كرامتهم وحرّيتهم، ومن أجل أن تسود العدالة والقيم الكريمة بين الناس.

انطباعات عن شخصيّته

واحتلّ أبو الفضل (عليه السلام) قلوب العظماء ومشاعرهم، وصار أنشودة الأحرار في كلّ زمان ومكان، وذلك لما قام به من عظيم التضحية تجاه أخيه سيّد الشهداء، الذي ثار في وجه الظلم والطغيان، وبنى للمسلمين عزاً شامخاً، ومجداً خالداً. وفيما يلي بعض الكلمات القيّمة التي أدلى بها بعض الشخصيات الرفيعة في حقّ أبي الفضل (عليه السلام).

١- الإمام زين العابدين:

أمّا الإمام زين العابدين فهو من المؤسسين للتقوى والفضيلة في الإسلام، وكان هذا الإمام العظيم يترحم - دوماً - على عمّه العباس، ويذكر بمزيد من الإجلال والإكبار تضحياته الهائلة لأخيه الحسين وكان مما قاله في حقّه هذه الكلمات القيّمة:

رحم الله عمّي العباس، فلقد آثر وأبلى، وفدى أخاه بنفسه، حتى قطعت يده، فأبدله الله بجناحين، يطير بهما مع الملائكة في الجنة، كما جعل لجعفر بن أبي طالب، وان للعباس عند الله تبارك وتعالى منزلة يعبطه عليها جميع الشهداء يوم القيامة..(١٢).

وألمّت هذه الكلمات بأبرز ما قام به أبو الفضل من التضحيات تجاه أخيه أبي الأحرار الإمام الحسين (عليه السلام)، فقد أبدى في سبيله من ضروب الإيثار وصنوف التضحية ما يفوق حدّ الوصف، وما كان به مضرب المثل على امتداد التاريخ، فقد قطعت يده الكريمتان يوم الطفّ في سبيله، وظلّ يقاوم عنه حتى هوى إلى الأرض صريعاً، وإن لهذه التضحيات الهائلة عند الله منزلة كريمة، فقد منحه من الثواب العظيم، والأجر الجزيل ما يغبطه عليه جميع شهداء الحقّ والفضيلة في دنيا الإسلام وغيره.

٢- الإمام الصادق:

أمّا الإمام الصادق (عليه السلام) فهو العقل المبدع والمفكّر في الإسلام فقد كان هذا العملاق العظيم يشيد دوماً بعمّه العباس، ويثنى ثناءً عاطراً وندياً على مواقفه البطولية يوم الطفّ، وكان مما قاله في حقّه:

(كان عمّي العباس بن علي (عليه السلام) نافذ البصيرة، صلب الإيمان، جاهد مع أخيه الحسين، وأبلى بلاءً حسناً، ومضى شهيداً...) (١٣).

وتحدّث الإمام الصادق (عليه السلام) عن أنبل الصفات الماثلة عند عمّه العباس والتي كانت موضع إعجابه وهي:

أ - نفاذ البصيرة:

أمّا نفاذ البصيرة، فإنها منبعثة من سداد الرأي، وأصالة الفكر، ولا يتّصف بها إلا من صفت ذاته، وخلصت سريرته، ولم يكن لدواعي الهوى والغرور أي سلطان عليه، وكانت هذه الصفة الكريمة من أبرز صفات أبي الفضل فقد كان من نفاذ بصيرته، وعمق تفكيره مناصرته ومتابعته لإمام الهدى وسيد الشهداء الإمام الحسين (عليه السلام)، وقد ارتقى بذلك إلى قمة الشرف والمجد، وخلدت نفسه العظيمة على امتداد التاريخ، فما دامت القيم الإنسانية يخضع لها الإنسان، ويمجّدها فأبو الفضل قد بلغ قمّتها وذروتها.

ب - الصلابة في الإيمان:

والظاهرة الأخرى من صفات أبي الفضل (عليه السلام) هي الصلابة في الإيمان وكان من صلابة إيمانه انطلاقه في ساحات الجهاد بين يدي ريحانة رسول الله مبتغياً في ذلك الأجر عند الله، ولم يندفع إلى تضحيته بأي دافع من الدوافع المادية، كما أعلن ذلك في رجزه يوم الطفّ، وكان ذلك من أوثق الأدلة على إيمانه.

ج - الجهاد مع الحسين:

وثمة مكرمة وفضيلة أخرى لبطل كربلاء العباس (عليه السلام) أشاد بها الإمام الصادق (عليه السلام) وهي جهاده المشرق بين

يدى سبط رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وسيّد شباب أهل الجنّة، ويعتبر الجهاد فى سبيله من أسمى مراتب الفضيلة التى انتهى إليها أبو الفضل، وقد أبلى بلاءً حسناً يوم الطفّ لم يشاهد مثله فى دنيا البطولات.

د - زيارة الإمام الصادق:

وزار الإمام الصادق (عليه السلام) أرض الشهادة والفداء كربلاء، وبعدها انتهى من زيارة الإمام الحسين وأهل بيته والمجتبين من أصحابه، انطلق بشوق إلى زيارة قبر عمّه العباس، ووقف على المرقد المعظم، وزاره بالزيارة التالية التى تتمّ عن سموّ منزلة العباس، وعظيم مكانته، وقد استهلّ زيارته بقوله:

(سلام الله، وسلام ملائكته المقربين، وأنبيائه المرسلين، وعباده الصالحين، وجميع الشهداء والصدّيقين والزكيات الطيّبات فيما تغتدى وتروح عليك يا ابن أمير المؤمنين..).

لقد استقبل الإمام الصادق عمّه العباس بهذه الكلمات الحافلة بجميع معانى الإجلال والتعظيم، فقد رفع له تحيات من الله وسلام ملائكته، وأنبيائه المرسلين، وعباده الصالحين، والشهداء، والصدّيقين، وهى أندى وأزكى تحيّة رفعت له، ويمضى سليل النبوة الإمام الصادق (عليه السلام) فى زيارته قائلاً:

(وأشهد لك بالتسليم، والتصديق، والوفاء، والنصيحة لخلف النبىّ المرسل، والسبط المنتجب، والدليل العالم، والوصى المبلّغ والمظلوم المهتضم..).

وأضفى الإمام الصادق (عليه السلام) بهذا المقطع أوسمة رفيعة على عمّه العباس هى من أجلّ وأسمى الأوسمة التى تضىفى على الشهداء العظام، وهى:

أ - التسليم:

وسلمّ العباس (عليه السلام) لأخيه سيّد الشهداء الإمام الحسين (عليه السلام) جميع أموره، وتابعه فى جميع قضاياها حتى استشهد فى سبيله، وذلك لعلمه بإمامته القائمة على الإيمان الوثيق بالله تعالى، وعلى أصالة الرأى وسلامة القصد، والإخلاص فى النيّة.

ب - التصديق:

وصدّق العباس (عليه السلام) أخاه ربحانة رسول الله (صلى الله عليه وآله) فى جميع اتجاهاته، ولم يخامرته شكّ فى عدالة قضيتّه، وأنّه على الحق، وأن من نصب له العداوة وناجزه الحرب كان على ضلال مبين.

ص: ١٤

ج - الوفاء:

من الصفات الكريمة التي أضافها الإمام الصادق (عليه السلام) على عمّه أبي الفضل (عليه السلام)، الوفاء فقد وفي ما عاهد عليه الله من نصره إمام الحق أخيه أبي عبد الله الحسين (عليه السلام)، فقد وقف إلى جانبه في أحلك الظروف وأشدّها محنة وقسوة، ولم يفارقه حتى قطعت يده، واستشهد في سبيله.

لقد كان الوفاء الذي هو من أميز الصفات الرفيعة عنصراً من عناصر أبي الفضل وذاتياً من ذاتياته، فقد خلق للوفاء والبرّ للقريب والبعيد.

د - النصيحة:

وشهد الإمام الصادق بنصيحة عمّه العباس لأخيه سيّد الشهداء (عليه السلام)، فقد أخلص له في النصيحة على مقارعة الباطل، ومناجزة أئمة الكفر والضلال، وشاركه في تضحياته الهائلة التي لم يشاهد العالم مثلها نظيراً في جميع فترات التاريخ... ولننظر إلى بند آخر من بنود هذه الزيارة الكريمة، يقول (عليه السلام):

(فجزاك الله عن رسوله، وعن أمير المؤمنين، وعن الحسن والحسين صلوات الله عليهم أفضل الجزاء بما صبرت، واحتسبت، وأعنت فنعم عقبي الدار...).

وحوى هذا المقطع على إكبار الإمام الصادق (عليه السلام) لعمّه العباس وذلك لما قدّمه من الخدمات العظيمة، والتضحيات الهائلة لسيّد شباب أهل الجنّة، وريحانة رسول الله (صلى الله عليه وآله) الإمام الحسين (عليه السلام) فقد فداه بروحه، ووقاه بمهجته، وصبر على ما لاقاه في سبيله من المحن والشدائد مبتغياً في ذلك الأجر عند الله، فجزاه الله عن نبيّه الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) وعن باب مدينته الإمام أمير المؤمنين، وعن الحسن والحسين أفضل الجزاء على عظيم تضحياته.

ويستمرّ مجدّد الإسلام الإمام الصادق (عليه السلام) في زيارته لعمّه العباس، فيذكر صفاته الكريمة، وما له من المنزلة العظيمة عند الله تعالى، فيقول بعد السلام عليه:

(أشهد، وأشهد الله أنّك مضيت على ما مضى به البديرون والمجاهدون في سبيل الله، المناصحون له في جهاد أعدائه، المبالغون في نصره أوليائه، الذابون عن أحبائه، فجزاك الله أفضل الجزاء وأكثر الجزاء وأوفر الجزاء وأوفى جزاء أحد ممن وفي بيعته، واستجاب لدعوته، وأطاع ولأمره...).

لقد شهد الإمام الصادق - العقل المفكّر والمبدع في الإسلام وأشهد الله تعالى على ما يقول: من أنّ عمّه أبا الفضل العباس (عليه السلام) قد مضى في جهاده مع أخيه أبي الأحرار الإمام الحسين (عليه السلام)، على الخطّ الذي مضى عليه شهداء بدر الذين هم من أكرم الشهداء عند الله فهم الذين كتبوا النصر للإسلام، وبدمائهم الزكية ارتفعت كلمة الله عالية في الأرض وقد استشهدوا

وهم على بصيرة من أمرهم، ويقين من عدالة قضيتهم، وكذلك سار أبو الفضل العباس على هذا الخطّ المشرق، فقد استشهد لإنتقاذ الإسلام من محنته الحازبة، فقد حاول صلوك بنى أمية حفيد أبى سفيان أن يمحو كلمة الله، ويلف لواء الإسلام، ويعيد الناس لجاهليتهم الأولى، فثار أبو الفضل بقيادة أخيه أبى الأحرار فى وجه الطاغية السفّاك، وتحققت بثورتهم كلمة الله العليا فى نصر الإسلام وإنزال الهزيمة الساحقة بأعدائه وخصومه.

ويستمرّ الإمام الصادق (عليه السلام) فى زيارته لعمّه العباس فيسجّل ما يحمله من إكبار وتعظيم، فيقول:

(أشهد أنّك قد بالغت فى النصيحة، وأعطيت غاية المجهود فبعثك الله فى الشهداء، وجعل روحك مع أرواح السعداء، وأعطاك من جنانه أفسحها منزلاً، وأفضلها غرفاً، ورفع ذكرك فى عليين وحشرك مع النبيين، والصدّيقين والشهداء، والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

أشهد أنّك لم تهن ولم تتكل، وأنك مضيت على بصيرة من أمرك، مقتدياً بالصالحين، ومتبعاً للنبيين، فجمع الله بيننا، وبينك وبين رسوله وأوليائه فى منازل المحبّتين، فإنّه أرحم الراحمين..(١٤).

ويلمس فى هذه البنود الأخيرة من الزيارة مدى أهميّة العباس، وسموّ مكاتته عند إمام الهدى الإمام الصادق (عليه السلام)، وذلك لما قام به هذا البطل العظيم من خالص النصيحة، وعظيم التضحية لريحانة رسول الله (صلى الله عليه وآله) الإمام الحسين (عليه السلام)، كما دعا الإمام له ببلوغ المنزلة السامية عند الله التى لا ينالها إلا الأنبياء، وأوصيائهم، ومن امتحن الله قلبه للإيمان.

٣- الإمام الحجّة:

وأدلى الإمام المصلح العظيم بقيّة الله فى الأرض قائم آل محمد (صلى الله عليه وآله) بكلمة رائعة فى حقّ عمّه العباس (عليه السلام) جاء فيها:

(السلام على أبى الفضل العباس ابن أمير المؤمنين، المواسى أخاه بنفسه، الآخذ لغده من أمسه، الفادى له، الواقى، الساعى إليه بمائه، المقطوعة يده، لعن الله قاتليه يزيد بن الرقاد، وحكيم بن الطفيل الطائى..)(١٥).

وأشاد بقيّة الله فى الأرض بالصفات الكريمة الماثلة فى عمّه قمر بنى هاشم وفخر عدنان، وهى:

١- مواساته لأخيه سيّد الشهداء (عليه السلام)، فقد واساه فى أحلك الظروف، وأشدّها محنة وقسوة، وظلّت مواساته له مضرب المثل على امتداد التاريخ.

٢- تقديمه أفضل الزاد لآخرفته، وذلك بتقواه، وشدة تحرّجه فى الدين، ونصرته لإمام الهدى.

٣- تقديم نفسه، وأخوته، وولده فداءً لسيد شباب أهل الجنة الإمام الحسين (عليه السلام).

٤- وقايتة لأخيه المظلوم بمهجته.

٥- سعيه لأخيه وأهل بيته بالماء حينما فرضت سلطات البغي والجور الحصار على ماء الفرات من أن تصل قطرة منه لآل النبي (صلى الله عليه وآله).

٤- الشعراء:

وهام الأحرار من شعراء أهل البيت (عليهم السلام) بشخصية أبي الفضل التي بلغت قمة الشرف والمجد، وسجلت صفحات من النور في تاريخ الأمة الإسلامية، وقد نظموا في حقه روائع الشعر العربي إكباراً وإعجاباً بمنثله الكريمة، فيما يلي بعضهم:

١- الكُميت:

أما شاعر الإسلام الأكبر الكُميت الأسدي فقد انطبع حبّ أبي الفضل في أعماق نفسه، وقد تعرّض لمدحه في إحدى هاشمياته الخالدة قال:

وأبو الفضل إن ذكرهم الحلو شفاء النفوس من أسقام (١٦)

إنّ ذكر أبي الفضل العباس (عليه السلام)، وسائر أهل البيت (عليهم السلام) حلو عند كل شريف لأنّه ذكر للفضيلة والكمال المطلق، كما أنّه شفاء للنفوس من أسقام الجهل والغرور، وسائر الأمراض النفسية.

٢- الفضل بن محمد:

من الشعراء الملهمين الذين هاموا بشخصية أبي الفضل (عليه السلام) هو حفيده الشاعر الكبير الفضل بن محمد بن الفضل بن الحسن بن عبيد الله بن العباس فقد قال:

إنى لأذكر للعبّاس موقفه بكر بلاء وهام القوم يختطف

يحمى الحسين ويحميه على ظمأ ولا يولّى ولا يثنى فيختلف

ولا أرى مشهداً يوماً كمشده مع الحسين عليه الفضل والشرف

أكرم به مشهداً بانت فضيلته وما أضاع له أفعاله خلف (١٧)

ص: ١٧

وصوّرت هذه الأبيات شجاعة أبي الفضل (عليه السلام) وما قام به من دور مشرق يدعو إلى الاعتزاز والفخر في حماية أخيه أبي الأحرار، ووقايته له بمهجته، وسقايته له ولأفراد عائلته وأطفاله بالماء، فلم يكن هناك مشهد أفضل ولا أسمى من هذا الموقف الرائع الذي وقفه أبو الفضل مع أخيه أبي عبد الله (عليه السلام) ... وقد استولت مواقف أبي الفضل على حفيده الفضل فهام بها وراثه بذوب روحه، وكان من رثائه له هذه الأبيات الرقيقة:

أحق الناس أن يبكى عليه فتى أبكى الحسين بكرىلاء

أخوه وابن والده على أبو الفضل المضرّج بالدماء

ومن واساه لا يننيه شيء وجادله على عطش بماء (١٨)

نعم إن أحق الناس أن يمجد ويبكى على ما حلّ به من رزء قاصم هو أبو الفضل رمز الإباء والفضيلة، فقد رزأ الإمام الحسين (عليه السلام) بمصرعه، وبكاه أمر البكاء لأنّه فقد بمصرعه أبا الإخوان، وأعطفهم عليه.

٣- السيّد راضى القزوينى:

وهام الشاعر العلوى السيّد راضى القزوينى بشخصية أبي الفضل (عليه السلام) قال:

أبا الفضل يا من أسس الفضل والإبا أبى الفضل إلا أن تكون له أبا

تطلبت أسباب العلى فبلغتها وما كل ساع بالغ ما تطلبا

ودون احتمال الضيم عزّ ومنعة تخيرت أطراف الأسنّة مركبا

إنّ أبا الفضل من المؤسسين للفضل والإباء فى دنيا العرب والإسلام فقد سما إلى طرق المجد، وأسباب العلى، فبلغ قمّتها، وقد تخير أطراف الأسنّة والرماح حتى لا يناله ذلّ، ولا ضيم.

٤ - محمد رضا الأزرى:

وأشاد الشاعر الكبير الحاج محمد رضا الأزرى فى رائعته بالمثل الكريمة التى تحلّى بها قمر بنى هاشم، والتى احتلت عواطف الأحرار ومشاعرهم يقول:

فانهض إلى الذكر الجميل مشمراً فالذكر أبقى ما اقتنته كرامها

ص: ١٨

أوما أتاك حديث وقعة كربلا أنى وقد بلغ السماء قتامها

يوم أبو الفضل استجار به الهدى والشمس من كدر العجاج لنامها

ودعا الأزرى بالبيت من رائحته إلى اقتناء الذكر الجميل الذى هو من أفضل المكاسب التى يظفر بها الإنسان فإنه أبقى، وأخذ له، ودعا بالبيت الثانى إلى التأمل والاستفادة من واقعة كربلاء التى تفجرت من بركان هائل من الفضائل والمآثر لآل النبى (صلى الله عليه وآله)، وعرج بالبيت الثالث على أبى الفضل العباس (عليه السلام) الذى استجار به سبط النبى (صلى الله عليه وآله) وريحانته، ولنستمع إلى ما قام به العباس من النصر والحماية لأخيه، يقول الأزرى:

فحمى عرينته ودمدم دونها ويذب من دون الشرى ضرغامها

والبيض فوق البيض تحسب وقعها زجل الرعود إذا اكفهر غمامها

من باسل يلقي الكتبية باسمأ والشوس يرشح بالمنية هامها

واشم لا يحتل دار هزيمة أو يستقل على النجوم رغامها

أولم تكن تدرى قريش أنه طلاع كل ثنية مقدامها

وهذه الأبيات منسجمة كل الانسجام مع بطولات أبى الفضل، فقد صوّرت بسالته، وما قام به من دور مشرف فى حماية أخيه أبى الأحرار فقد انبرى كالأسد يذب عن أخيه فى معركة الشرف والكرامة، غير حافل بتلك الوحوش الكاسرة التى ملأت البيداء دفاعاً عن ذئاب البشرية، وقد انطلق أبو الفضل باسمأ فى ميادين الحرب وهو يحطم أنوف أولئك الأوغاد ويجرّعهم غصص الموت فى سبيل كرامته وعزة أخيه، وقد استبان للقبائل القرشية فى هذه المعركة أن أبا الفضل طلاع كل ثنية، وأنه ابن من أرغمها على الإسلام وحطم جاهليتها وأوثانها.

وبهذا العرض نأتى على الانطباعات الكريمة عن شخصية أبى الفضل (عليه السلام) عند الأئمة الطاهرين (عليهم السلام)، وعند بعض أعلام الأدب العربى.

الهوامش

١ - قمر بنى هاشم ١: ١١ - ١٣ ذكر المحقق الشيخ عبد الواحد المظفر فى كتابه بطل العلقمى عرضاً مفصلاً لمآثر هذه الأسرة الكريمة.

ص: ١٩

٢ - تنقيح المقال ١٢٨./٢

٣ - تنقيح المقال ١٢٨./٢

٤ - العباس للمقرّم: ٧٢ - ٧٣ نقلاً عن مجموعة الشهيد الأول.

٥ - قمر بنى هاشم ٢: ٥,

٦ - جاء فى العقد الفريد ٣/٣٣١ ان دريد بن الصمة خرج ومعه جماعة من فرسان بنى جشم حتى إذا كانوا فى واد لبنى كنانة يقال له الأخرم، وهم يريدون الغارة على بنى كنانة فرأوا رجلاً معه ضعينة فى ناحية الوادى فقال دريد لفارس من أصحابه امض واستول على الضعينة، وانتهى الفارس إلى الرجل فصاح به خلّ عن الضعينة وانج بنفسك، فألقى زمام الناقة، وقال للضعينة:

سيرى على رسلک سير الآمن سير دراج ذات جاش طامن

ان التئانى دون قرنى شائنى ابلى بلائى فاخبرى وعائنى

ثم حمل على الرجل فصرعه، وأخذ فرسه وأعطاهها للضعينة، وبعث دريد فارساً آخر لينظر ما صنع صاحبه فلما انتهى إليه رآه صريعاً فصاح بالرجل فألقى زمام الضعينة، فلما انتهى إليه حمل عليه وهو يقول:

خل سبيل الحرة المنية انك لاق دونها ربيعة

فى كفه خطية منية أولاً فخذها طعنة سريعة

وحمل عليه فصرعه، ولما أبطأ بعث دريد فارساً آخر لينظر ما صنع الرجلان ولما انتهى إليهما وجدتهما صريعين، والرجل يجرح رمحه، فلما نظر إليه قال للضعينة اقصدى قصد البيوت ثم أقبل عليه وقال:

ماذا ترى من شيثم عابس أما ترى الفارس بعد الفارس

أرداهما عامل رمح يابس

ثم حمل عليه فصرعه، وانكسر رمحه، وارتاب دريد فى امر جماعته وظن أنهم أخذوا الضعينة وقتلوا الرجل فلحقهم، وقد دنا ربيعة من الحى، فوجدهم دريد قد قتلوا جميعاً، فقال لربيعة: إن مثلك لا يقتل، ولا أرى معك رمحك، والخيل نائرة بأصحابها فدونك هذا الرمح فانى منصرف عنك إلى أصحابى، ومشبطهم عنك، فانصرف إلى أصحابه وقال لهم: ان فارس الضعينة قد حماها وقتل أصحابكم وانتزع رمحى فلا مطمع لكم فيه فانصرف القوم فقال دريد فى ذلك:

ص: ٢٠

ما ان رأيت ولا سمعت بمثله حامى الظعينة فارساً لم يقتل
أردى فوارس لم يكونوا نهزة ثم استمر كأنه لم يفعل
فتهللت تبدو أسرة وجهه مثل الحسام جلته كف الصيقل
يزجى طعنته ويسحب رمحه مثل البغات خشين وقع الجندل

٧ - جاء فى تنقيح المقال ١٢٨/٢ أنه تحدث للعباس ستة عشر لقباً.

٨ - الفرس المطهم: هو السمين الفاحش فى السمن كما فى القاموس وفى المنجد أنه التام الحسن.

٩ - مقاتل الطالبين: ٥٤.

١٠ - المنمق فى أخبار قريش: ٤٣٧.

١١ - قمر بنى هاشم: ١، ١٩.

١٢ - الخصال: ١، ٣٥.

١٣ - ذخيرة الدارين: ١٢٣ نقلاً عن عمدة الطالب.

١٤ - مفاتيح الجنان للقمي وغيره من كتب الزيارات والأدعية.

١٥ - مزار محمد بن المشهدى من أعلام القرن السادس: ٥٥٣.

١٦ - الهاشميات: ٢٥، ومن الغريب أن الشارح لهذا الديوان قال: ان المراد بأبى الفضل هو العباس بن عبد المطلب.

١٧ - قمر بنى هاشم: ١٤٧ نقلاً عن المجدى.

١٨ - الغدير: ٣: ٥.

عناصره النفسية

كان سيّدنا العباس (عليه السلام) دنيا من الفضائل والمآثر، فما من صفة كريمة أو نزعة رفيعة إلا وهى من عناصره وذاتيّاته، وحسبه فخراً أنّه نجل الإمام أمير المؤمنين الذى حوى جميع فضائل الدنيا، وقد ورث أبو الفضل فضائل أبيه وخصائصه، حتى صار عند المسلمين رمزاً لكل فضيلة وعنواناً لجميع القيم الرفيعة، ونلمح - بإيجاز - لبعض صفاته.

١- الشجاعة

أمّا الشجاعة فهى من أسمى صفات الرجولة لأنها تتمّ عن قوة الشخصية وصلابتها، وتماسكها أمام الأحداث، وقد ورث أبو الفضل هذه الصفة الكريمة من أبيه الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) الذى هو أشجع إنسان فى دنيا الوجود، كما ورث هذه الصفة من أخواله الذين تميّزوا بهذه الظاهرة، وعرفوا بها من بين سائر الأحياء العربية.

لقد كان أبو الفضل دنيا فى البطولات، فلم يخالج قلبه خوف ولا رعب فى الحروب التى خاضها مع أبيه كما يقول بعض المؤرخين، وقد أبدى من الشجاعة يوم الطف ما صار مضرب المثل على امتداد التاريخ، فقد كان ذلك اليوم من أعظم الملاحم التى جرت فى الإسلام، وقد برز فيه أبو الفضل أمام تلك القوى التى ملأت البيداء فجبن الشجعان وأرعب قلوب عامة الجيش، فزلزلت الأرض تحت أقدامهم وخيم عليهم الموت، وراحوا يمتنون به بإعطاء القيادة العامة إن تخلّى عن مساندة أخيه، فهزأ منهم العباس، وزاده ذلك تصلباً فى الدفاع عن عقيدته ومبادئه.

إن شجاعة أبى الفضل (عليه السلام)، وما أبداه من البسالة يوم الطفّ لم تكن من أجل مغنم مادية من هذه الحياة، وإنّما كانت دفاعاً عن أقدس المبادئ الماثلة فى نهضة أخيه سيّد الشهداء المدافع الأوّل عن حقوق المظلومين والمضطهدين.

مع الشعراء:

وبهر شعراء الإسلام بشجاعة أبى الفضل، وقوة بأسه وما ألحقه بالجيش الأموى من الهزيمة الساحقة، وفيما يلى بعض الشعراء الذين هاموا بشخصيته:

١- السيّد جعفر الحلّى:

ووصف الشاعر العلوى السيّد جعفر الحلّى فى رائعته ما منى به الجيش الأموى من الرعب والفرع من أبى الفضل (عليه السلام) يقول:

وقع العذاب على جيوش أمية***ممن باسل هو فى الوقائع معلم

ما راعهم إلا تفحم ضيغم***غيران يعجم لفظه ويهدمدم
عبست وجوه القوم خوف الموت***والعباس فيهم ضاحك يتبسم
قلب اليمين على الشمال وغاص في***الأوساط يحصد للرؤوس ويحطم
ما كرز ذو بأس له متقدماً***إلا وفرّ ورأسه المــــتــــتــــقدم
صبغ الخيول برمحه حتى غدا***سـيـان أشقر لونها والأدهم
ما شدّ غضباناً على ملمومه***إلا وحلّ بها البلاء المبرم
وليه إلى الإقدام نزعته هارب***فكأنما هو بالتقدم يــــســــلم
بطل تورث من أبيه شجاعة***ففيها أنوف بنى الضلالة ترغم
أرايتم هذا الوصف الرائع لبسالة أبي الفضل وقوة بأسه وشجاعته النادرة!.

أرايتم كيف وصف الحلّي ماحلّ بالجيش الأموي من الجبن الشامل، والهزيمة الساحقة حينما برز إليهم قمر بنى هاشم وبطل الإسلام فأنزل بهم العذاب الأليم، وترك صفوفهم تموج من الخوف والرعب، وكان العباس متبسماً مثلوج الفؤاد مما ينزل بهم من الخسائر الفادحة!، فقد ملأ ساحات المعركة بجثث قتلاهم، وصبغ خيولهم بدمائهم، وفيما أحسب أنه لم توصف البسالة والشجاعة بمثل هذا الوصف الرائع الدقيق، والذي لا مبالغة فيه حسبما تحدّث الرواة عمّا أنزله العباس (عليه السلام) بأهل الكوفة من الخسائر الجسيمة.

ويستمرّ السيد الحلّي في وصف شجاعة أبي الفضل فيقول:

بطل إذا ركب المطم خلتهم***جبالاً أشمّ يخفف فــــيه مطهم

قسماً بصارمه الصقيل واننى***فى غير صاعقة السماء لا أقسم

لولا القضا لمحا الوجود بسيفه***والله يــــقضى ما يشاء ويحكم

لقد كان سيف أبي الفضل صاعقة مدمّرة قد حلّت بأهل الكوفة، ولولا قضاء الله لأتى العباس على الجيش، ومحاهم من ساحة الوجود.

٢- الإمام كاشف الغطاء:

وبهر الإمام محمد الحسين كاشف الغطاء (رحمه الله) بشجاعة أبي الفضل فقال في قصيدته العصماء:

وتعبس من خوف وجوه أمية*** إذا كسر عبّاس الوغى يتبسّم

عليه بتأويل السمنية سيفه*** تزول على من بالكريهة معلم

وان عاد ليل الحرب بالنقع أليلاً*** فيوم عداه منه بالشر أيوم

لقد عبست وجوه الجيش الأموي رعباً وخوفاً من أبي الفضل الذي حصد رؤوس أبطالهم، وحطم معنوياتهم، وأذاقهم وإبلاً من العذاب الأليم.

٣- الفرطوسي:

وعرض شاعر أهل البيت (عليهم السلام) الشيخ عبد المنعم الفرطوسي نصر الله مثواه في ملحمة الخالدة إلى شجاعة أبي الفضل وبسالته في ميدان الحرب قال:

علم للجهاد في كل زحف*** علم في الثبات عند اللقاء

قد نما فيه كل بأس وعزّ*** من على بن نجدة وإباء

هو ثبت الجنان في كل روع*** وهو روع الجنان من كل راء

وأضاف الفرطوسي مصوراً ما أنزله أبو الفضل من الخسائر الفادحة في جيوش الأمويين قال:

فارتقى صهوة الجواد مطلاً*** علماً فوق قلعة شمّاء

وتجلّى والحرب ليل قثام*** قمرأ في غياهب الظلماء

فاستطارت من الكمامة قلوب*** أفرغت من ضلوعها كالهواء

وتهاوت جسومهم وهي صرعى*** واستطارت رؤوسهم كالهباء

وهو يرمى الكتائب السود رجماً*** بالمنايا من اليد البيضاء (١)

ص: ٢٤

إن شجاعة أبي الفضل قد أدهشت أفذاذ الشعراء، وصارت مضرب المثل على امتداد التاريخ، ومما زاد في أهميتها أنها كانت لنصرة الحق والذبّ عن المثل والمبادئ التي جاء بها الإسلام، وأنها لم تكن بأى حال من أجل مغنم مادي من مغنم هذه الحياة.

٢- الإيمان بالله: —

أمّا قوّة الإيمان بالله، وصلابته فإنها من أبرز العناصر في شخصية أبي الفضل (عليه السلام)، ومن أوليات صفاته، فقد تربّى في حجور الإيمان ومراكز التقوى، ومعاهد الطاعة والعبادة لله تعالى، فقد غذّاه أبوه زعيم الموحّدين، وسيد المتقين بجوهر الإيمان، وواقع التوحيد، لقد غذّاه بالإيمان الناشئ عن الوعي، والتدبّر في حقائق الكون، وأسرار الطبيعة، ذلك الإيمان الذي أعلنه الإمام (عليه السلام) بقوله: (لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً) وقد تفاعل هذا الإيمان العميق في أعماق قلب أبي الفضل وفي دخائل ذاته حتى صار من عمالقة المتقين والموحّدين، وكان من عظيم إيمانه الذي لا يحدّ أنه قدم نفسه واخوته وبعض أبنائه قرابين خالصة لوجه الله تعالى.

لقد جاهد العباس ببسالة دفاعاً عن دين الله، وحماية لمبادئ الإسلام التي تعرّضت للخطر الماحق أيام الحكم الأموي، ولم يبع بذلك إلا وجه الله والدار الآخرة.

٣- الإباء: —

وصفة أخرى من أسمى صفات أبي الفضل (عليه السلام)، وهي الإباء وعزّة النفس فقد أبى أن يعيش ذليلاً في ظلّ الحكم الأموي الذي اتخذ مال الله دولاً، وعباد الله خولاً، فاندفع إلى ساحات الجهاد كما اندفع أخوه أبو الأحرار الذي رفع شعار العزّة والكرامة، وأعلن أن الموت تحت ظلال الأستّة سعادة، والحياة مع الظالمين برماً.

لقد مثّل أبو الفضل (عليه السلام) يوم الطفّ الإباء بجميع رحابه ومفاهيمه فقد منّاه الأمويون بإمارة الجيش، وإسناد القيادة العامة له إن تخلّى عن أخيه سيّد شباب أهل الجنّة، فهزأ منهم وجعل إمارة جيشهم تحت حدائمه، واندفع بشوق وإخلاص إلى ميادين الحرب يجندل الأبطال ويحصد الرؤوس دفاعاً عن حرّيته ودينه وكرامته.

٤- الصبر: —

ومن خصائص أبي الفضل (عليه السلام) ومميّزاته الصبر على محن الزمان، ونوائب الدهر، فقد ألمّت به يوم الطفّ من المصائب والمحن التي تذوب من هولها الجبال، فلم يجزع، ولم يفه بأى كلمة تدلّ على سخطه، وعدم رضاه بما جرى عليه وعلى أهل

بيته، وإنما سلّم أمره إلى الخالق العظيم، مقتدياً بأخيه سيّد الشهداء (عليه السلام) الذي لو وزن صبره بالجمال الرواسى لرجح عليها.

لقد رأى أبو الفضل الكواكب المشرقة، والممجدين الأوفياء من أصحابه وهم مجزّرون كالأضاحى فى رمضاء كربلاء تصهرهم الشمس، وسمع عويل الأطفال، وهم ينادون: العطش العطش، وسمع صراخ عقائل الوحى، وهنّ يندبن قتلاهنّ، ورأى وحدة أخيه سيّد الشهداء، وقد أحاط به أنزال أهل الكوفة يبعون قتله تقريباً لسيّدهم ابن مرجانة، رأى أبو الفضل كل هذه الشدائد الجسام فلم يجزع وسلّم أمره إلى الله تعالى، مبتغياً الأجر من عنده.

٥- الوفاء: —

ومن خصائص أبى الفضل (عليه السلام) الوفاء الذى هو من أنبل الصفات وأميزها، فقد ضرب الرقم القياسى فى هذه الصفة الكريمة وبلغ أسمى حدّها، وكان من سمات وفائه ما يلى:

أ - الوفاء لدينه:

وكان أبو الفضل العباس (عليه السلام) من أوفى الناس لدينه، ومن أشدّهم دفاعاً عنه، فحينما تعرّض الإسلام للخطر الماحق من قبل الطغمة الأموية الذين تنكّروا كأشدّ ما يكون التنكّر للإسلام، وحاربوه فى غلس الليل وفى وضح النهار، فانطلق أبو الفضل إلى ساحات الوغى فجاهد فى سبيله جهاد المنيبين والمخلصين لترتفع كلمة الله عالية فى الأرض، وقد قطعت يده، وهوى إلى الأرض صريعاً فى سبيل مبادئه الدينية.

ب - الوفاء لأئمته:

رأى سيّدنا العباس (عليه السلام) الأمة الإسلامية ترزح تحت كابوس مظلم من الذلّ والعبودية قد تحكّمت فى مصيرها عصابة مجرمة من الأمويين فنهبت ثرواتها، وتلاعبت فى مقدراتها، وكان أحد أعمدتهم السياسية يعلن بلا حياء ولا خجل قائلاً: (إنما السواد بستان قريش) فأى استهانة بالأمة مثل هذه الاستهانة، ورأى أبو الفضل (عليه السلام) أن من الوفاء لأئمته أن يهبّ لتحريرها وإنقاذها من واقعها المرير، فانبرى مع أخيه أبى الأحرار والكوكبة المشرقة من فتيان أهل البيت (عليهم السلام)، ومعهم الأحرار الممجدون من أصحابهم، فرفعوا شعار التحرير، وأعلنوا الجهاد المقدّس من أجل إنقاذ المسلمين من الذلّ والعبودية، وإعادة الحياة الحرّة الكريمة لهم، حتى استشهدوا من أجل هذا الهدف السامى النبيل، فأى وفاء للأمة يضارع مثل هذا الوفاء؟

ج - الوفاء لوطنه:

وغمرت الوطن الإسلامي محن شاقّة وعسيرة أيام الحكم الأموي، فقد استقلاله وكرامته، وصار بستاناً للأمويين وسائر القوى الرأسمالية من القرشيين وغيرهم من العملاء، وقد شاع البؤس والحرمان، وذلّ فيه المصلحون والأحرار، ولم يكن فيه أى ظلّ لحرية الفكر والرأى، فهبّ العباس تحت قيادة أخيه سيّد الشهداء (عليه السلام) إلى مقاومة ذلك الحكم الأسود وتحطيم أروقته وعروش، وقد تمّ ذلك بعد حين بفضل تضحياتهم، فكان حقاً هذا هو الوفاء للوطن الإسلامي.

د - الوفاء لأخيه:

ووفى أبو الفضل ما عاهد الله عليه من البيعة لأخيه ربحانة رسول الله (صلى الله عليه وآله)، والمدافع الأول عن حقوق المظلومين والمضطهدين.

ولم ير الناس على امتداد التاريخ وفاءً مثل وفاء أبي الفضل لأخيه الإمام الحسين (عليه السلام)، ومن المقطوع به أنه ليس فى سجّل الوفاء الإنسانى أجمل ولا أنظر من ذلك الوفاء الذى أصبح قطباً جاذباً لكل إنسان حرّ شريف.

٦- قوّة الإرادة: _____

أمّا قوّة الإرادة فإنّها من أميز صفات العظماء الخالدين الذين كتب لهم النجاح فى أعمالهم إذ يستحيل أن يحقق من كان خائر الإرادة، وضعيف الهمّة أى هدف اجتماعى، أو يقوم بأى عمل سياسى.

لقد كان أبو الفضل (عليه السلام) من الطراز الأول فى قوة بأسه، وصلابة إرادته، فانضمّ إلى معسكر الحق، ولم يهن، ولم ينكل، وبرز على مسرح التاريخ كأعظم قائد فدّ، ولو لم يتّصف بهذه الظاهرة لما كتب له الفخر والخلود على امتداد الأيام.

٧- الرأفة والرحمة: _____

وأترعت نفس أبى الفضل بالرأفة والرحمة على المحرومين، والمضطهدين وقد تجلّت هذه الظاهرة بأروع صورها فى كربلاء حينما احتلّت جيوش الأمويين حوض الفرات لحرمان أهل البيت من الماء حتى يموتوا أو يستسلموا لهم، ولما رأى العباس (عليه السلام) أطفال أخيه، وسائر الصبية من أبناء اخوته، وقد ذبلت شفاههم، وتغيّرت ألوانهم من شدة الظمّ ذاب قلبه حناناً وعطفاً عليهم، فاقترح الفرات، وحمل الماء إليهم، وسقاهاهم، وفى اليوم العاشر من المحرمّ، سمع الأطفال ينادون العطش العطش، فتفتت كبده رحمة ورأفة عليهم، فأخذ القرية، والتحم مع أعداء الله حتى كشفهم عن نهر الفرات، فغرف منه غرفة ليروى ظمّاه فأبّت رحمته أن يشرب قبل أخيه وأطفاله، فرمى الماء من يده.

فتشوا في تاريخ الأمم والشعوب فهل تجدون مثل هذه الرفقة والرحمة، التي تحلّى بها قمر بنى هاشم وفخر عدنان؟

هذه بعض عناصر أبي الفضل وصفاته، وقد ارتقى بها إلى قمة المجد التي ارتقى إليها أبوه.

الهوامش

١ - ملحمة أهل البيت ٣ : ٣٢٩ - ٣٣٠

مع الأحداث

ورافق أبو الفضل العباس (عليه السلام) منذ نعومة أظفاره كثيراً من الأحداث الجسام التي لم تكن ساذجة، ولا سطحية، وإنما كانت عميقة كأشد ما يكون العمق، فقد أحدثت اضطراباً شاملاً في الحياة الفكرية والعقائدية بين المسلمين، كما استهدفت بصورة دقيقة إبعاد أهل البيت (عليهم السلام) عن المراكز السياسية في البلاد، وإخضاعهم لرغبات السلطة، وما تعمله على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي، من أعمال لا تتفق في كثير من بنودها مع التشريع الإسلامي، وقد تجلّى ذلك بوضوح أيام حكومة عثمان وما سلكته من التصرفات في المجالات الإدارية، فقد عمدت إلى منح مناصب الدولة، وسائر الوظائف العامة إلى بنى أمية وآل معيط، وحرمان بنى هاشم، ومن يتصل بهم من أبناء الصحابة من أي منصب من المناصب العامة، وقد استولى الأمويون على جميع أجهزة الدولة، وراحوا يعملون عامدين أو غير عامدين إلى خلق الأزمات الحادة بين المسلمين، ومن المقطوع به أنه لم تكن لأكثرهم أية نزعة إسلامية، كما لم تكن لهم أية دراية بأحكام القانون الإسلامي، وما تتطلب إليه الشريعة الإسلامية من إيجاد مجتمع إسلامي متطور قائم على المودة والتعاون وبعيد كل البعد عن التأخر.

لقد أشاعت حكومة عثمان الرأسمالية في البلاد، فقد منحت الأمويين وبعض أبناء القرشيين الامتيازات الخاصة، وفتحت لهم الطريق لكسب الأموال، وتكديسها بغير وجه مشروع، وقد أدت هذه السياسة الملتوية إلى خلق اضطراب شامل لا في الحياة الاقتصادية فحسب، وإنما في جميع مناحي الحياة، وأشاعت القلق والتذمر في جميع الأوساط الإسلامية، فاتجهت قطعات من الجيوش المرابطة في العراق ومصر إلى يثرب، وطالبت عثمان بالاستقامة في سياسته، وإبعاد الأمويين عن جهاز الدولة، كما طالبوه بصورة خاصة بإبعاد مستشاره ووزيره مروان بن الحكم الذي كان يعمل بصورة مكشوفة لتأجيج نار الفتنة في البلاد.

ولم يستجب عثمان لمطالب الثوار، ولم يخضع لرأى الناصحين له، والمشفقين عليه، وظلّ متمسكاً بأسرته، ومحتضناً لبطانته، تتوافد عليه الأخبار بانحرافهم عن الطريق القويم، واقترافهم لما حرّمه الله، فلم يعن بذلك، وراح يسدّدهم ويلتمس لهم المعاذير، ويتّهم الناصحين بالعداء لأسرته.

وبعد ما اختفت جميع الوسائل الهادفة لاستقامة عثمان لم يجد الثوار بداً من قتله، فقتل شرّاً قتلة، ويقول المؤرخون أنه تولّى قتله

ص: ٢٨

خيار أبناء الصحابة كـمحمد بن أبي بكر، كما أقرّ قتله كبار الصحابة وعظماؤهم، وفي طليعتهم الصحابي الجليل صاحب رسول الله (صلى الله عليه وآله) وخليته عمّار بن ياسر.

وانتهت بذلك حكومة عثمان وهي من أهمّ الأحداث الجسام التي جرت في عصر أبي الفضل (عليه السلام) وبمراى ومسمع منه، فقد كان في شرخ الشباب وعنفوانه وقد رأى كيف تذرّع الانتهازيون من الأمويين بمقتل عثمان فطبلوا له، ورفعوا قميصه الملطّخ بدمائه فجعلوه شعاراً لتمرّدهم على حكم الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) ذلك الحكم القائم على الحق والعدل.

إنّ أسوأ ما تركت حكومة عثمان أنّها ألقت الفتنة بين المسلمين، وحصرت الثروة عند الأمويين وآل أبي معيط، وعملائهم من القرشيين الحاقدين على العدل الاجتماعى، وبذلك استطاعوا القيام بعصيان مسلّح ضدّ حكومة الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) التي كانت امتداداً ذاتياً لحكومة الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله).

وعلى أيّ حال فلنترك حديث عثمان، ونتوجّه إلى ذكر بقيّة الأحداث التي جرت في عصر أبي الفضل (عليه السلام).

حكومة الإمام —

والشئء المؤكّد الذي لا خلاف فيه أنّ الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) قد انتخب انتخاباً شاملاً من جميع قطعات الشعب، فقد سارعت القوات المسلحة التي أطاحت بحكومته إلى مبايعته كما بايعته الجماهير العامة في مختلف الأقاليم الإسلامية سوى الشام، ونفر قليل في يثرب كان من بينهم سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، وبعض الأمويين الذين أيقنوا أنّ الإمام (عليه السلام) ييسط العدالة الاجتماعية في الأرض، ويحقق المساواة الكاملة بين المسلمين فلا امتياز لأحد على أحد، وبذلك تفوت مصالحهم، فلم يبائعوه، ولم يقف الإمام معهم موقفاً معادياً فلم يوعز إلى السلطات القضائية والتنفيذية باتخاذ الإجراءات الحاسمة ضدّهم، وذلك عملاً بما منحه الإسلام من الحريّات العامة لجميع الناس، سواء كانوا من المؤيدين للدولة أو من المعارضين لها بشرط أن لا يحدثوا فساداً في الأرض، أو يقوموا بعصيان مسلّح ضدّ الدولة فإنّها تكون مضطّرة إلى اتخاذ الإجراءات القانونية ضدّهم.

وعلى أيّ حال فقد بويح الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) بيعة عامة عن رضا واختيار من جميع أبناء الشعوب الإسلامية، وأظهروا في بيعته جميع مباحج الفرح والسرور، ولم يظفر بمثل هذه البيعة أحد من الخلفاء الذين سبقوه أو تأخّروا عنه.

وفور تقلّد الإمام (عليه السلام) للخلافة تبنى بصورة إيجابية وشاملة العدل الخالص، والحق المحض، وتنكّر لكل مصلحة شخصية تعود بالنفع عليه أو على ذويه، وقدم مصالح الفقراء والمحرومين على جميع المصالح الأخرى... كانت سعادته أن يرى

الأوساط الشعبية تنعم بالخير والسعادة، ولا مكان للحاجة والاعواز عندها، ولم يعرف في تاريخ هذا الشرق حاكم مثله في عطفه وحنانه على البؤساء والمحرومين.

ولابدّ لنا من وقفة قصيرة للحديث عن بعض شؤون الحكم عند الإمام (عليه السلام) فإن ذلك يرتبط ارتباطاً وثيقاً بسيرة ولده أبي الفضل (عليه السلام) فإنّه يكشف عن روعة التربية الكريمة التي تربى عليها في عهد أبيه رائد العدالة الاجتماعية في الأرض، والتي تركت في نفسه حبّ التضحية والفداء في سبيل الله، كما يكشف عن الأسباب الوثيقة التي دعت القوى الطامعة، والمنحرفة إلى الوقوف في وجه حكومة الإمام (عليه السلام)، ومناهضتهم لأبنائه من بعده، وفيما يلي ذلك:

منهج حكم الإمام _____

أمّا منهج الحكم وفلسفته عند الإمام (عليه السلام) فقد كان مشرقاً وحافلاً بمقومات الارتقاء، والنهوض للشعوب الإسلامية، وفيما أعتقد أنّه لم تعرف الإنسانية في جميع أدوارها نظاماً سياسياً تبنى العدل الاجتماعي، والعدل الاقتصادي والسياسي مثل ما تبنّاه الإمام، وسنّه من المناهج الرائعة في هذه الحقول ونشير إلى بعضها:

١- بسط الحرّيات:

وآمن الإمام (عليه السلام) بضرورة منح الحرّيات العامة لجميع أبناء الأُمّة، وأن ذلك من أولويات حقوقها، والدولة مسؤولة عن توفيرها لكل فرد من أبناء الشعب، وأن حرمانهم منها يخلق في نفوسهم العقد النفسية، ويمنع من التقدّم الفكري، والتطوّر الاجتماعي في أبنائها، ويخلد لهم الخنوع والخمول، ويعود عليهم بالأضرار البالغة، أمّا مدى هذه الحرية وسعتها فهي:

أ - الحرّية الدينية:

يرى الإمام (عليه السلام) أن الناس أحرار فيما يعتقدون ويذهبون من أفكار دينية، وليس للدولة أن تحول بينهم وبين عقائدهم كما أنّه ليس لها أن تحول بينهم وبين طقوسهم الدينية، وأنهم غير ملزمين بمسايرة المسلمين في الأحوال الشخصية، وإنّما يتبعون ما قنن من تشريع عند فقهاءهم.

ب - الحرّية السياسية:

ونعني بها منح الناس الحرية التامة في اعتناق المذاهب السياسية التي تتفق مع رغباتهم وميولهم، وليس للدولة أن تفرض عليهم رأياً سياسياً مخالفاً لما يذهبون إليه، كما أنّه ليس لها أن تفرض عليهم الإقلاع عن آرائهم السياسية الخاصة، وإنّما عليها أن تقيم لهم الأدلة والحجج الحاسمة على فساد ذلك المذهب، وعدم صحّته، فإن رجعوا إلى الرشاد فذاك، وإلا فتتركهم وشأنهم ما لم

يحدثوا فساداً في الأرض، أو يخلّوا بالأمن العام، كما اتفق ذلك من الخوارج الذين فقدوا جميع المقوّمات الفكرية، والركائز العلمية، وراحوا يتمادون في جهلهم وغيّهم ويعرضون الناس للقتل والإرهاب، فاضطرّ الإمام (عليه السلام) إلى مقاومتهم بعد أن أعذر فيهم.

ومن الجدير بالذكر أن مما يتفرّع على الحرية السياسية حرية النقد لرئيس الدولة وجميع أعضائها، فالتناس أحرار فيما يتولّون، وينقدون، وقد كان الخوارج يقطعون على الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) خطابه، ويخدشون عواطفه بنقدهم الذي لم يكن واقعياً، وإنّما كان مبنياً على الجهل والمغالطة، فلم يتخذ الإمام أى إجراء ضدّهم، ولم يسقهم إلى المحاكم والقضاء لينالوا جزاءهم، وبذلك فقد عهد الإمام إلى نشر الوعي العام، وبناء الشخصية المزدهرة للإنسان المسلم.

هذه بعض صور الحرية التي طبّقت أيام حكم الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) وهي تمثّل مدى أصالة منهجه السياسي الذي يساير التطور والإبداع.

٢- نشر الوعي الديني:

واهتم الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) بصورة إيجابية بنشر الوعي الديني، وإشاعة المثل الإسلامية بين المسلمين، باعتبارها الركيزة الأولى لإصلاح المجتمع وتهذيبه.

إنّ من أولى معطيات الوعي الديني إقصاء الجريمة، ونفى الشذوذ والانحراف عن المجتمع، وإذا لم يتلوّث بذلك، فقد بلغ غاية الازدهار والتقدّم.

ومن المقطوع به أنّا لم نجد أحداً من خلفاء المسلمين وملوكهم قد عنى بالتربية الدينية كما عنى الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام)، فقد حفل نهج البلاغة بالكثير من خطبه التي تهزّ أعماق النفوس، وتدفعها إلى سلوك المناهج الخيرة، واعتناق الفضائل، وإبعادها عن اقتراف الجرائم، وقد أثمرت خطبه في إيجاد طبقة من خيار المسلمين وصلحائهم، قاوموا الانهيار الأخلاقي، وناهضوا التفسخ والتحلل الذي شاع أيام حكم الأمويين، وكان من بين هؤلاء رشيد الهجرى وميثم التمار وعمرو بن الحمق الخزاعي، وغيرهم من بناء الفكر الإسلامى.

٣- نشر الوعي السياسى:

أمّا نشر الوعي السياسى فى أوساط المجتمع الإسلامى فهو من أهمّ الأهداف السياسية التى تبناها الإمام (عليه السلام) فى أيام حكومته.

ونعنى بالوعى السياسى هو تغذية المجتمع وإفهامه بجميع الطرق والوسائل بالمسؤولية أمام الله تعالى، على مراقبة الأوضاع العامة فى الدولة وغيرها من سائر الشؤون الاجتماعية للمسلمين حتى لا يقع أى تمزق فى صفوفهم، أو أى تأخر أو ضعف فى حياتهم الفردية والاجتماعية، وقد أُلزم الإسلام بذلك، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (كلّكم راع، وكلّكم مسؤول عن رعيّته..) ألقى النّبىّ (صلى الله عليه وآله) المسؤولية على جميع المسلمين فى رعاية شؤونهم، والعمل على حفظ مصالحهم، ودرء الفساد عنهم.

ومن بين الأحاديث المهمّة الداعية إلى مقاومة أئمة الظلم والجور هذا الحديث النبوى الذى ألقاه أبو الأحرار على جلاوزة ابن مرجانة وعبيده قال: (أيتها الناس: إن رسول الله (صلى الله عليه وآله)، قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله (صلى الله عليه وآله) يعمل فى عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر ما عليه بفعل ولا قول، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله..)(١).

وكان هذا الحديث الشريف من المحفّزات لسيد الشهداء (عليه السلام) على إعلان الجهاد المقدّس ضدّ الحكم الأموى الجائر الذى استحلّ ما حرّم الله، ونكث عهده، وخالف سنة رسوله، وعمل فى عباد الله بالإثم والعدوان.

إنّ الوعى السياسى الذى أشاعه الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) بين المسلمين أيام حكمه قد خلق شعوراً ثورياً ضدّ الظالمين والمستبدّين، فقد انبرى المجاهدون الأبطال ممن غذّاهم الإمام بهذه الروح إلى مقارعة الطغاة، وكان على رأسهم أبو الأحرار سيّد الشهداء وأخوه البطل الفدّ أبو الفضل العباس (عليه السلام)، والكوكبة المشرقة من شباب أهل البيت (عليهم السلام) وأصحابهم المجاهدين، فقد هبوا جميعاً فى وجه الطاغية يزيد لتحرير المسلمين من الذلّ والعبوديّة وإعادة الحياة الحرّة الكريمة بين المسلمين.. وقد سبق هؤلاء العظماء المصلح الكبير حجر بن عدى الكندى، وعمرو بن الحمق الخزاعى ورشيد الهجرى، وميثم التّمّار وغيرهم من أعلام الحرية ودعاة الإصلاح الاجتماعى، فقد ثاروا بوجه الطاغية معاوية بن أبى سفيان ممثّل القوى الجاهلية، ورأس العناصر المعادية للإسلام، وعلى أى حال فقد غرس الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) روح الثورة على الظلم والظغيان فى نفوس المسلمين، وأهاب بهم أن لا يقارّوا على كظّة ظالم أو سغب مظلوم.

٤- إلغاء المحسوبيات:

وكان مما عنى به الإمام (عليه السلام) فى أيام حكومته إلغاء المحسوبيات إلغاءً مطلقاً، فالتقريب والبعيد عنده سواء، فليس للتقريب امتياز خاص، وإنّما شأنه شأن غيره فى جميع الحقوق والواجبات كما ساوى بصورة موضوعية بين العرب والموالى مما جعل الموالى يدينون له بالولاء، ويؤمنون بإمامته.

لقد ألغى الإمام جميع صنوف المحسوبيات، وصور العنصريات، وساوى بين المسلمين على اختلاف قومياتهم مساواة عادلة لم

يعهد لها نظير في تاريخ الأمم والشعوب، فقد حملت مساواته روح الإسلام وجوهره وحقيقته النازلة من ربّ العالمين، فهي التي تجمع ولا تفرّق ولا تجعل في صفوف المسلمين أى ثغرة يسلك فيها أعداء الإسلام لتشتيت شملهم، وتصديع وحدتهم.

٥- القضاء على الفقر:

أمّا فلسفة الإمام (عليه السلام) في الحكم فتبتني على محاربة الفقر ولزوم إقصاء شبحه البغيض عن الناس لأنّه كارثة مدمّرة للمواهب والأخلاق، ولا يمكن للأمة أن تحقّق أى هدف من أهدافها الثقافية والصحيّة وهي فقيرة بائسة، إن الفقر يقف سدّاً حائلاً بين الأمة وبين ما تصبو إليه من التطوّر والتقدّم والرخاء بين أبنائها.. ومن الجدير بالذكر أن من بين المخططات التي تزيل شبح الفقر وتوجب نشر الرخاء بين الناس، والتي عنى بها الإسلام بصورة موضوعية وهي:

أ - توفير المسكن.

ب - إقامة الضمان الاجتماعي.

ج - توفير العمل.

د - القضاء على الاستغلال.

هـ - سدّ أبواب المرايين.

و - القضاء على الاحتكار.

هذه بعض الوسائل التي عنى بها الإسلام في اقتصاده، وقد تبناها الإمام في أيّام حكومته، وقد ناهضتها القوى الرأسمالية القرشبية ودفعت بجميع إمكانياتها للإجهاز على حكم الإمام، الذي قضى على مصالحهم الضيّقة، وبهذا نظوى الحديث عن منهج الإمام وفلسفته في الحكم.

القوى المعارضة للإمام: _____

ولا بدّ لنا من وقفة قصيرة للتعرفّ على القوى المعارضة لحكومة الإمام، التي لم تكن لها أيّة أهداف نبيلة، وإنّما كانت تبغى الاستيلاء على الحكم للظفر بخيرات البلاد، والتحكّم في رقاب المسلمين بغير حقّ، وفيما يلي ذلك.

ص: ٣٣

- السيِّدة عائشة:

وانطوت نفس السيِّدة عائشة - مع الأسف - على بغض عارم وكرهية شديدة للإمام أمير المؤمنين (عليه السلام)، ولعلَّ السبب في ذلك - فيما نحسب - يعود إلى ميل زوجها النبيّ (صلى الله عليه وآله) إلى الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) وإلى بضعته وحببيته سيِّدة نساء العالمين فاطمة الزهراء (عليهما السلام)، وإلى سبطيه وريحانتيه سيِّدى شباب أهل الجنَّة الحسن والحسين (عليهما السلام) وإشادته دوماً بفضلهم، وسمو منزلتهم عند الله، وفرض مودّتهم على عموم المسلمين، كما أعلن الذكر الحكيم ذلك، قال تعالى (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودّة في القربى) وفي نفس الوقت كانت عائشة تعامل معاملة عادية، وفي كثير من الأحيان كان النبيّ (صلى الله عليه وآله) يشير إلى أفعالها، فقد قال (صلى الله عليه وآله) لنسائه: أيتكنّ تنبجها كلاب الحوَّاب فتكون ناكبة عن الصراط، وقال (صلى الله عليه وآله): من هاهنا يتولّد الشرّ، وأشار إلى بيتها، وغير ذلك مما أثار عواطفها.

وثمة سبب في كراهية عائشة للإمام وهو موقفه الصارم الذي وقفه تجاه بيعة أبي بكر، ومقاطعته لانتخابه، وشجبه لبيعته، وبعد سقوط حكومة عثمان كانت تروم إرجاع الخلافة إلى قبيلتها تيم لتكون سياسة الدولة بجميع أجهزتها خاضعة لرغباتها وميولها، وهي على يقين أن الخلافة إذا رجعت للإمام (عليه السلام) فإنها سوف تعامل كغيرها من أبناء الشعوب الإسلامية، ولا تحظى بأيّة مميّزة، فإن جميع الشؤون السياسية والاقتصادية عند الإمام (عليه السلام) لا بدّ أن تسير على وفق الكتاب والسنة، ولا مجال عنده للأهواء والعواطف، وكانت عائشة تعرف ذلك جيّداً، ولذا أعلنت العصيان والتمرد على حكومته، وقد انضمَّ إليها كل من الزبير وطلحة والأمويين وذوى الأطماع والمنحرفين عن الحق من القبائل القرشية الذين ناهضوا الدعوة الإسلامية من حين بزوغ نورها.

وعلى أيّ حال فقد كانت عائشة من أوثق الأسباب في الإطاحة بحكومة عثمان، وقد أفتت بوجوب قتله، ولما أيقنت بهلاكه خرجت إلى مكّة، وهي تتطلع إلى الأخبار، فلما وافاها النبأ بقتله أعلنت فرحتها الكبرى، ولكنها لمّا فوجئت بالبيعة للإمام (عليه السلام) انقلب وضعها رأساً على عقب، وراحت تقول بحرارة:

(قتل عثمان مظلوماً والله لأطلبنّ بدمه..).

وأخذت تندب عثمان رياءً لا حقيقة، وقد رفعت قميصه الملطّخ بدمه، وجعلته شعاراً لتمردّها على السلطة الشرعية التي أعلنت حقوق الإنسان، وتبنّت مصالح المحرومين والمضطهدين والتي كانت امتداداً لحكومة الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله).

وعقدت عائشة في مكّة الندوات مع أعضاء حزبها البارزين كطلحة والزبير، وسائر الأمويين، وأخذت تتداول معهم الآراء أي بلد يغزونه ليشكّلوا فيه حكومة لهم، ويتخذوا منه قاعدة لانطلاقهم في محاربة الإمام، والإجهاز على حكومته، وبعد التأمل والنظر الدقيق في أحوال المناطق الإسلامية أجمع رأبهم على احتلال البصرة لأنّ لهم بها شيعة وأنصاراً، وأعلنوا بعد ذلك العصيان المسلّح، وزحفوا نحو البصرة، وقد التحق بهم بهائم البشر، وحنالات الشعوب من الذين ليس لهم فكر ولا وعى، وساروا لا

يلوون على شىء حتى انتهوا إلى البصرة، وبعد مقاومة عنيفة بينهم وبين الحكومة المركزية فيها استطاعوا احتلالها، وألقوا القبض على حاكمها سهل بن حنيف وجرى به مخفوراً إلى عائشة فأمرت بنتف لحيته، فنتفها جلاوزتها وعاد ابن حنيف بعد لحيته العريضة شاباً أمرد.

ولما وافت الأنباء الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) بتمرد عائشة، واحتلالها لمدينة البصرة، سارع بجيوشه للقضاء على هذا الجيش المتمرد، خوفاً من أن تسرى نار الفتنة إلى بقية الأمصار الإسلامية، وقد ضم جيشه القوى الواعية فى الإسلام أمثال الصحابى العظيم عمّار بن ياسر، ومالك الأشتر، وحجر بن عدى، وابن التيهان وغيرهم ممن ساهموا فى بناء الإسلام، وإقامة ركائزه فى الأرض.

وسرت جيوش الإمام حتى انتهت إلى البصرة فوجدوها محتلة بجنود مكثفة، وهم يعلنون الطاعة والولاء لأهمّ عائشة، فأرسل الإمام رسله إلى أعضاء القيادة العسكرية فى جيش عائشة كطلحة والزبير، فعرضوا عليهم السلم والدخول فى مفاوضات بينهم وبين الإمام حقناً لدماء المسلمين، فأبوا، وأصرّوا على التمرد والعصيان مطالبين - بوقاحة - بدم عثمان، وهم الذين أطاحوا بحكومته، وأجهزوا عليه.

ولما نفذت جميع الوسائل التى اتخذها الإمام (عليه السلام) للسلم اضطرّ إلى إعلان الحرب عليهم، وجرت بين الفريقين معركة رهيبه سقط فيها أكثر من عشرة آلاف مقاتل، وأخيراً نصر الله الإمام على أعدائه، فقد قتل طلحة والزبير، وملئت ساحة المعركة بجثث قتلاهم، وقذف الله الرعب فى قلوب الأحياء منهم فولّوا منهزمين قابعين بالذلّ والعار.

واستولى جيش الإمام على عائشة القائدة العامة للمتمردين، وحملت بحفاوة إلى بعض بيوت البصرة، ولم يتخذ الإمام معها الإجراءات الصارمة، وعاملها معاملة المحسن الكريم، وسارع الإمام فسرحها تسريحاً جميلاً إلى يثرب، لتقرّ فى بيتها الذى أمرها الله ورسوله أن تسكن فيه، ولا تتدخل بمثل هذه الأمور التى ليست مسؤولة عنها.

وانتهت هذه الفتنة التى أسماها المؤرّخون (بحرب الجمل) وقد أشاعت فى ربوع المسلمين النكل والحزن والحداد، ومزقت صفوفهم، وألقتهم فى شرّ عظيم.. ومن المؤكّد أن دوافع هذه الحرب لم تكن سليمة، ولم تكن حجة عائشة وحزبها منطقية، وإنّما كانت من أجل المطامع، والكراهية الشديدة لحكم الإمام الذى فقدوا فى ظلاله جميع الامتيازات الخاصة، وعاملهم الإمام كما يعامل سائر المسلمين.

لقد شاهد أبو الفضل العباس (عليه السلام) هذه الحرب الدامية، ووقف على أهدافها الرامية للقضاء على حكم أبيه رائد العدالة الاجتماعية فى الأرض، وقد استبان له أحقاد القبائل القرشية له واستبان له أن الدين لم ينفذ إلى أعماق قلوبهم، وإنّما كانوا يلوكونه بالسنتهم حفظاً لدمائهم ومصالحهم.

- معاوية وبنو أمية:

وفى طليعة القوى المعارضة لحكومة الإمام والمعادية له، معاوية بن أبى سفيان، وبنو أمية فقد نزع الله الإيمان من قلوبهم،

وأركسهم فى الفتنة ركساً، فكانوا من ألدّ أعداء الإمام، كما كانوا من قبل أعداء لرسول الله (صلى الله عليه وآله) فهم الذين ناهضوا دعوته، وكفروا برسالته، وكادوا له فى غلس الليل، وفى وضح النهار، حتى أعزّه الله وأذلّهم، ونصره وقهرهم، وقد دخلوا فى الإسلام مكرهين لا مؤمنين به، ولولا سماحة خلق النّبىّ (صلى الله عليه وآله) وعظيم رأفته ورحمته لما أبقي لهم ظلاً على الأرض، إلا أنّه (صلى الله عليه وآله) منحهم العفو كما منح غيرهم من أعدائه.

ولم يكن للأمويين أى شأن يذكر أيام النّبىّ (صلى الله عليه وآله) فقد قبعوا بالذل والهوان ينظر إليهم المسلمون بنظرة العداة والخصوم، ويذكرون ما قاموا به فى محاربة دينهم، والتنكيل بنبيهم، ومن المؤسف أنّه لما فجع المسلمون بفقد نبيهم (صلى الله عليه وآله) وآل الأمر إلى الخلفاء علا نجم الأمويين، وذلك لأسباب سياسية خاصة، فقد عين أبو بكر يزيد بن أبى سفيان والياً على دمشق، وخرج بنفسه لتوديعه إلى خارج يثرب تعظيماً له، وإشادة بمكانة أسرته، ولم يفعل مثل ذلك مع بقية عمّاله وولاته كما يقول المؤرّخون، ولما هلك يزيد أسندت ولاية دمشق إلى أخيه معاوية، وكان أثيراً عند عمر تتوافد عليه الأخبار بأنّه يشدّ فى سلوكه، وينحرف فى تصرفاته عن سنن الشرع وأحكام الإسلام، فقد أخبروه بأنّه يلبس الحرير والديباج، ويأكل فى أوانى الذهب والفضّة، وكل ذلك محرّم فى الإسلام، فيقول معتذراً عنه، ومسدداً له: ذاك كسرى العرب، ومتى كان ابن هند الصعلوك النذل كسرى العرب!! ولو فرضنا أنّه كان كذلك فهل يباح له فى شريعة الله أن يقترب الحرام، ولا يحاسب عليه، إن الله تعالى ليست بينه وبين أحد نسب ولا قرابة، فكل من شدّ عن سنّته، وخالف أحكامه فإنّه يعاقبه على ذلك، يقول الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله): لو عصيت لهويت، ويقول الإمام زين العابدين (عليه السلام): إن الله تعالى خلق الجنة لمن أطاعه ولو كان عبداً حبشياً، وخلق النار لمن عصاه ولو كان سيّداً قرشياً.

وعلى أىّ حال فإن عمر قد أغدق بالطفاه ونعمه على معاوية وزاد فى رقعة سلطانه، ونفخ فيه روح الطموح، وقد ظلّ يعمل فى ولايته على الشام عمل من يريد الملك والسلطان، فكان يقربّ الوجوه والزعماء، ويغدق عليهم بالهبات والأموال، ويشترى الذم والعواطف، ويركّز ولاءه فى قلوب الغوغاء.

ومهدت عائشة فى ثورتها على حكم الإمام الطريق لمعاوية لإعلانه العصيان المسلّح على حكومة الإمام التى هى أشرف حكومة ظهرت فى الشرق العربى على امتداد التاريخ، وقد تذرّع بها معاوية الذئب الجاهلى لحرب الإمام، واتخذ من دم عثمان وسيلة لإغراء الغوغاء واتّهم الإمام بأنّه المسؤول عن المطالبة بدمه، وفى نفس الوقت أوعز إلى أجهزة الإعلام أن تندب عثمان، وتظهر براءته مما اقترفه فى تصرفاته الاقتصادية والسياسية التى تتجافى مع أحكام الإسلام.

وتسلّح معاوية بكبار الدبلوماسيين، ومهرة السياسة فى العالم العربى أمثال المغيرة بن شعبة، وعمرو بن العاص، وأمثالهما ممن كانت لهم الدراية الوثيقة فى أحوال المجتمع، فكانوا يضعون له المخططات الرهيبة لتغلّب على الأحداث.

إعلان الحرب: —

ورفض معاوية رسمياً بيعة الإمام، وأعلن عليه الحرب، وهو يعلم أنه إنما يحارب أخا رسول الله (صلى الله عليه وآله) ووصيه وباب مدينة علمه، ومن كان منه بمنزلة هارون من موسى، لقد أعلن عليه الحرب كما أعلن أبوه أبو سفيان الحرب على رسول الله (صلى الله عليه وآله).

وتشكل الجيش الذي زحف به معاوية لمحاربة الإمام (عليه السلام) من العناصر التالية:

أ - الغوغاء:

أما الغوغاء فهم جهلة الشعوب، وهم كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً وتستخدمهم السلطة في كل زمان لنيل أهدافها، ولتبنى عروشها على جماجمهم، وكانت الأكثرية الساحقة من جيش معاوية من هؤلاء الغوغاء المغرر بهم الذين لا يميّزون بين الحق والباطل، والذين تلوثهم الدعاية كيفما شاءت، وقد جعلهم معاوية جسراً فعبر عليهم لنيل مقاصده الشريرة.

ب - المنافقون:

أما المنافقون فهم الذين أظهروا الإسلام في ألسنتهم، وأضرموا الكفر والعداء له في ضمائرهم وقلوبهم، وكانوا يبغون له الغوائل، ويكيدون له في وضوح النهار، وفي غلس الليل، وقد ابتلى بهم الإسلام كأشدّ ما يكون البلاء، وامتنحن بهم المسلمون كأشدّ ما يكون الامتحان لأنهم مصدر الخطر عليهم وقد ضمّ جيش معاوية رؤوس المنافقين وضروسهم أمثال المغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص، ومروان بن الحكم، وأمثالهم من الزمرة الباغية الذين وجدوا الفرصة لهم مواتية لضرب الإسلام وقلع جذوره، وقد تسلّحوا بمعاوية ابن أبي سفيان العدو الأوّل للإسلام فناصروه، وساروا في جيشه لمحاربة أخى رسول الله (صلى الله عليه وآله) ووصيه، والمنافع الأوّل عن الإسلام.

إنّ جميع من حارب رسول الله (صلى الله عليه وآله) من المنافقين قد انضمّوا إلى معاوية وصاروا من حزبه وأعوانه في محاربة الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام).

ج - النفعيون:

ونعني بهم الجماعة التي فقدت امتيازاتها ومنافعها اللامشروعة في ظلّ حكم الإمام رائد العدالة الاجتماعية في الأرض، وفي طليعة هؤلاء، العمّال والولادة، وسائر الموظّفين في حكومة عثمان، فقد فقدوا منافعهم وخافوا على مصادرهم من الأموال التي اختلسوها من الشعب أيام عثمان، كما تمّ عزلهم عن مناصبهم فور تقلّد الإمام للحكم.

هذه بعض العناصر التي تشكّل منها جيش معاوية، وقد زحف بهم إلى محاربة قائد الإسلام، ورائد العدالة الإنسانية.

احتلال الفرات:

وأتجهت جيوش معاوية صوب العراق، فعسكرت في منطقة صفين واختارتها مركزاً للحرب، وأوعزت القيادة العامة إلى قطعات الجيش باحتلال الفرات، ووضع المغارز على حوض الفرات لمنع جيش الإمام من الشرب ليموتوا عطشاً، وقد اعتبر معاوية ذلك أوّل النصر والفتح، ونمّ ذلك عن خبث طبيعته ولؤم عنصره، فإن لكل إنسان بل ولكل حيوان حقاً طبيعياً في الماء عند كافة الأمم والشعوب، ولكن معاوية وبنى أمية قد تخلّوا عن جميع الأعراف، فاستعملوا منع الماء كسلاح في معاركهم، فقد منعوا الماء يوم الطفّ عن ريحانة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته حتى أشرفوا على الموت من شدّة الظمأ.

ولمّا علم الإمام (عليه السلام) بزحف معاوية لحربه اتّجه بجيوشه نحو صفين فلمّا انتهوا إليها وجدوا حوض الفرات قد احتلّ من قبل معسكر معاوية، ومنعوه من تناول قطرة من الماء، وألحّ العطش بجيش الإمام فانبرت إليه قادة جيشه، وطلبوا منه الإذن في مقارعة القوم، فرغب الإمام قبل أن يبدأهم بالحرب أن يطلبوا منهم السماح في تناول الماء، إذ ليس لهم من سبيل أن يتخذوه وسيلة لكسب المعركة لأن الماء مباح لكل إنسان وحيوان عند جميع الشرائع والأديان، وعرض عليهم أصحاب الإمام ذلك إلا أنّهم أبوا وأصرّوا على غيبتهم وعدوانهم، فاضطرّ الإمام بعد ذلك إلى أن يسمح لقواته المسلّحة بفتح نار الحرب عليهم، فحملوا عليهم حملة واحدة، ففروا منهزمين شرّ هزيمة، وتركوا مواقعهم فاحتلتها جيوش الإمام، وأصبح نهر الفرات بأيديهم، انطلق فريق من قادة الجيش نحو الإمام فطلبوا منه أن يسمح لهم في منع الماء عن أصحاب معاوية كما منعوه من قبل، فأبى الإمام أن يقابلهم بالمثل، فأباح لهم الماء كما هو مباح للجميع في شريعة الله، ولم يشكر الأمويون الأوغاد هذه اليد البيضاء التي أسداها عليهم الإمام، فقد قابلوه بالعكس، فمنعوا الماء عن أبنائه في كربلاء حتى صرعهم الظمأ، وأذاب العطش قلوبهم.

دعوة الإمام إلى السلم: —

وكره الإمام أشدّ الكره الحرب وإراقة الدماء، فدعا إلى السلم والوثام، فقد أرسل عدّة وفود إلى ابن هند يدعوّه إلى الدخول فيما دخل فيه المسلمون وأن يجنّبهم من الحرب فأبى ولم يستجب لهذه الدعوة الكريمة، وأصرّ على الغيّ والعدوان، وتذرّع كذباً بالمطالبة بدم عثمان الذي ما أراق دمه إلا سوء تصرفاته السياسية والإدارية.

- الحرب:

ولمّا فنشلت جميع الجهود التي بذلها الإمام من أجل السلم وحقق الدماء اضطرّ إلى أن يفتح مع عدوّه باب الحرب، وقد خاض معه حرباً مدمّرة سقط فيها عشرات الآلاف من القتلى فضلاً عن المعوقين من كلا الجانبين واستمرّت الحرب أكثر من سنتين

ص: ٣٨

كانت تشتدّ حيناً، وتفتّر حيناً آخر، وفي المرحلة الأخيرة من الحرب كاد الإمام أن يكسب المعركة، وتحسم من صالحه، فقد بان الانكسار في جيش معاوية، وتفللت جميع قواعد عسكره، وعزم معاوية على الهزيمة لولا أن تذكّر قول ابن الأُتنبية:

أبت لى عفتى وحياء نفسى*** وإقدامى على البطل المشيخ

وإعطائى على المكروه مالى*** وأخذى الحمد بالثمن الريح

وقولى كلما جشأت وجاشت***مكانك تحمدى أو تسريحي

فردّه هذا الشعر إلى الصبر والثبات كما كان يتحدّث بذلك أيّام العافية، وفيما أحسب أن هذا الشعر ليس هو الذى ردّه إلى الثبات وعدم الهزيمة إذ ليست لابن هند آية عفة أو حياء نفس، ولا غير ذلك مما حوته هذه الأبيات وإنما ردّه إلى الصبر هو ما دبره من المكيدة والخديعة التى مزقت الجيش العراقى، وهو ما سنتحدّث عنه.

- الخديعة الكبرى:

وآن النصر المحتم لجيش الإمام، فقد أشرف على الفتح، ولم يبق إلا مقدار حلبة شاة من الوقت حتى يؤسر معاوية أو يقتل كما أعلن ذلك قائد القوّات المسلحة فى جيش الإمام الزعيم مالك الأشتر، ومن المؤسف جداً أنّه فى تلك اللحظات الحاسمة منى الإمام بانقلاب عسكرى فى جيشه، فقد رفع عسكر معاوية المصاحف على أطراف الرماح، وهم ينادون بالدعوة إلى تحكيم القرآن، وإنهاء الحرب حقناً لدماء المسلمين، واستجابت قطعات من جيش الإمام لهذا النداء الذى يحمل التدمير الشامل لحكومة الإمام وأقول دولة القرآن.

يا للعجب لقد نادى جيش معاوية بالرجوع إلى تحكيم القرآن، ومعاوية وأبوه هما فى طليعة من حارب القرآن.

أصحيح أن ابن هند يؤمن بالقرآن، ويحرص على دماء المسلمين وهو الذى أراق أنهاراً من دمائهم إرضاءً لجاهليته، وانتقاماً من الإسلام؟

وكان أول من استجاب لهذا النداء المزيف العميل الأموى الأشعث ابن قيس، فقد جاء يشتدّ كالكلب نحو الإمام، وقد رفع صوته ليسمعه الجيش قائلاً:

(ما أرى الناس إلا قد رضوا، وسرّهم أن يجيبوا القوم إلى ما دعوهم إليه من حكم القرآن، فإن شئت أتيت معاوية فسألته ما يريد...).

وامتنع الإمام من إجابة هذا العميل المنافق الذى طعن الإسلام فى صميمه، والتفّ حول الأشعث جماعة من الخونة فأحاطوا بالإمام، وهم ينادون: أجب الأشعث، ولم يجد الإمام بداً من إجابته، فانطلق الخائن صوب معاوية، فقال له:

(لأى شيء رفعتم هذه المصاحف؟..)

فأجابه معاوية مخادعاً:

ولنرجع نحن وأنتم إلى أمر الله عزّ وجلّ في كتابه تبعثون منكم رجلاً ترضون به، ونبعث منّا رجلاً، ثمّ نأخذ عليهما أن يعملوا بما في كتاب الله لا يعدوانه ثم نتبع ما اتفقا عليه..).

ورفع الأشعث عقيرته قائلاً:

(هذا هو الحقّ..).

وخرج الأشعث من معاوية، وهو ينادى بضرورة إيقاف الحرب، والرجوع إلى كتاب الله العظيم، ومن المؤكّد أنّ هذه الحركة الانقلابية التي تزعمها هذا المنافق العميل لم تكن وليدة رفع المصاحف، وإنّما كانت قبل زمن ليس بالقليل، فقد كانت هناك اتّصالات سرّية بين الأشعث وبين معاوية ووزيره والفكر المدبّر لخدعه وأباطيله عمرو بن العاص، ومما يدل على ذلك أنّه لم تكن هناك رقابة ولا مباحث في جيش الإمام على من يتّصل بمعسكر معاوية فقد كان الطريق مفتوحاً، وجرت اتّصالات مكثّفة بين معاوية والأشعث وغيره من قادة الجيش العراقي، وقدم لهم معاوية الرشوات، ومنّاهم بالمراتب العالية، وبالمزيد من الأموال إن استجابوا لدعوته.

وعلى أيّ حال فقد أرغم الإمام على قبول التحكيم، فقد أحاطت به قطعات من جيشه وقد شهرت عليه السيوف والرماح وهي تنادى: (لا حكم إلا لله) واتخذوا هذا النداء شعاراً لتمردهم، ووقفهم ضدّ الامام، وسرعان ما أصبحوا حركة ثورية، ومصدر قلق مشير للفتن والاضطراب.

وعلى أيّ حال فقد جهد الإمام بنفسه ورسله على إقناعهم، وإرجاعهم إلى طريق الحقّ والصواب، فلم يتمكن، ورأى أنّهم جادّون على مناجزته والإطاحة بحكومته، فاستجاب لهم، وأوعز إلى قائد قوّاته العسكرية الزعيم مالك الأشتر بالانسحاب عن ساحة الحرب، وإيقاف العمليات العسكرية، وكان قد أشرف على الفتح فلم يبق بينه وبين الاستيلاء على معاوية سوى مقدار حلبة شاة، ورفض مالك الاستجابة وأصرّ على مزاولته الحرب إلا أنّه أخبر بأنّ الإمام في خطر، وان المتمرّدين قد أحاطوا به، فاضطرّ إلى إيقاف الحرب، وبذلك فقد تمّ ما أراد معاوية من الإطاحة بحكومة الإمام، وكتب له في تلك اللحظات النصر على الإمام، وقد انتصرت معه الوثنية القرشية كما يقول بعض الكتّاب والمحدثين.

التحكيم: —

وتوالت المحن والأزمات على الإمام يتبع بعضها بعضاً، وانكشفت خفايا هؤلاء العملاء المتمردّين، فقد أُصروا على انتخاب أبي موسى الأشعري ليكون ممثلاً عن العراق، والأشعري خبيث دنس كان حقوداً على الإمام، ومن الدّ أعدائه وخصومه، وفي نفس الوقت لم يملك وعياً ولا فهماً للأحداث، وكان بليداً ومنافقاً واتّخذ المنافقون والمتمردون في جيش الإمام جسراً فعبروا عليه لنيل مقاصدهم الخبيثة لعزل الإمام عن الحكم، وتثبيت معاوية في مركزه.

ولم يستطع الإمام إيقاف هذا المدّ التآمرى في جيشه، فقد أصبح قادة جيشه يتلقون الأوامر والتوجيهات من قبل معاوية ووزيره ابن العاص، وصار الإمام بمعزل تام عن الحياة السياسية، فقد أصبح يأمر جيشه فلا يطيع، ويدعوه فلا يستجيب له، وصارت دفة الحكم كلها بيد معاوية.

لقد حكم الأشعري بعزل الإمام، وحكم ابن العاص بإبقاء معاوية، وبذلك فقد انتهت مهزلة التحكيم إلى عزل الإمام عن منصب الحكم، وتقليده لمعاوية وانطوت بذلك أقدس حكومة إسلامية ظهرت في الشرق كان يرجى منها أن تقوم ببسط العدل السياسى والعدل الاجتماعى بين الناس، فلم تدعها هذه الوحوش الكاسرة من ذئاب الأمويين، وسائر القبائل القرشبية من تحقيق أهدافها ومثلها العليا.

لقد شاهد أبو الفضل العباس (عليه السلام) وهو في دور الشباب فصول هذه المأساة الكبرى فكوت قلبه، وهزّت عواطفه، فقد جرت لأهل بيته المصائب، وأخلدت لهم المحن والخطوب.

ثورة الخوارج: —

ومن بين المحن الشاقة التي امتحن بها الإمام امتحاناً عسيراً هي ثورة الخوارج فقد كان معظمهم من بهائم البشر، فقد امتطاهم معاوية، وجعلهم جسراً لنيل أطماعه وأهدافه من حيث لا يشعرون، فهم الذين أرغموا الإمام على قبول التحكيم، وإيقاف عمليات الحرب، وهم الذين أُصروا على انتخاب المنافق أبي موسى الأشعري، ولما عقد التحكيم، وأعلن أبو موسى عزل الإمام عن منصبه، وأعلن ابن العاص إقامة سيده معاوية في مركزه أسفوا على ما فرطوا في أمر المجتمع الإسلامى واستبانة لهم المكيدة التي دبرها ابن العاص في رفع المصاحف وعابوا على الإمام وكفّروه لاستجابته لهم، وفي الحقيقة هم الذين يتحمّلون جميع المسؤوليات الناجمة عن ذلك.

ولمّا نزع جيش الإمام من صفين إلى الكوفة لم يدخلوا معه إليها وإنما انحازوا إلى حروراء فانسبوا إليها، وكان عددهم فيما يقول المؤرّخون اثني عشر ألفاً، وأذن مؤدّتهم أن أمير القتال المنافق شيب بن ربيع الذي كان من قادة الجيش الذي حارب

ص: ٤١

ريحانة رسول الله (صلى الله عليه وآله) الإمام الحسين (عليه السلام)، كما نصبوا إماماً للصلاة عبدالله بن الكواء العسكرى، وجعلوا الأمر شورى بعد الفتح، والبيعة لله عزّ وجلّ، وجعلوا من أهمّ الأحكام التي يقاتلون من أجلها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجعلوا شعارهم (لا حكم إلا لله) ولكنهم سرعان ما تنكروا لهذا الشعار فجعلوا الحكم للسيف وذلك بما أراقوه من دماء الأبرياء، وما نشره من الذعر والخوف بين المسلمين.

وبعث الإمام إليهم بعض رسله يعدلهم عن فكرتهم، ويرشدهم إلى طريق الحقّ والصواب، فلم يجد ذلك معهم شيئاً، فانطلق (عليه السلام) بنفسه إليهم، ومعه أعلام أصحابه، فجعل يناظرهم، ويقيم الأدلة الوثيقة على فساد رأيهم، وضلالة قصدهم، فاستجاب له قوم، وأبى قوم آخرون، وجعل الأمر يمعن في الفساد بين الإمام وبينهم، وأخذوا ينشرون الإرهاب، وأعمال التخريب، ويعيثون في الأرض فساداً، وقد رحلوا عن الكوفة، وعسكروا في النهروان، واجتاز عليهم الصحابي الجليل عبد الله بن خباب ابن الأرت، وهو من أعلام أصحاب الإمام فدارت بينه وبينهم أحاديث، فعمدوا إليه فقتلوه، وقتلوا معه السيّد زوجته، ولم يقف شرهم عند هذا الحدّ، وإنما أخذوا يذيعون الذعر والخوف بين المسلمين.

وبعث الإمام إليهم الحارث بن مرة العبدى ليسألهم عما أحدثوه من الفساد، فلما انتهى إليهم أجهزوا عليه وقتلوه، ورأى الإمام بعد هذا أنّهم يشكّلون خطراً كبيراً على دولته، وأنهم مصدر فتنة وتخريب بين المسلمين، وأن الواجب يقضى بحربهم فزحف إليهم بجيشه، ودارت بينه وبينهم معركة رهيبة، فقتلوا عن آخرهم ولم يفلت منهم إلا تسعة (٢) وانتهت بذلك حرب النهروان وقد شاهد أبو الفضل العباس (عليه السلام) هذه الحرب ووقف على دوافعها التي كان منها كراهة هؤلاء القوم لعدل الإمام، وتفانيه في إقامة الحقّ بين الناس.

ومن الجدير بالذكر أن أبا الفضل العباس (عليه السلام) لم يشترك في حرب النهروان ولا في حرب صفين، فقد منعه الإمام كما منع بعض أبنائه، وأعلام أصحابه من الدخول في الحرب ضناً بهم على الموت، ومما يدل على ذلك أن الذين كتبوا عن واقعة صفين والنهروان لم يذكروا أيّ دور لسيدنا العباس فيهما.

النتائج الفظيعة: _____

وأعقبت حرب الجمل، وحرب صفين أسوأ الأحداث وأقساها وأشقها محنة على الإمام (عليه السلام) ومن بينها:

١- التمرد الكامل في جيش الإمام فقد أصبحت جميع قطعاته غير مطيعة لأوامر الإمام.

لقد شاعت الهزيمة النفسية في جيش الإمام، وفقدت قطعاته الروح المعنوية، وتخاذلت تخاذلاً مطلقاً أمام الأحداث التي منى بها.

٢- وعمد معاوية بعد معركة صفين إلى تعزيز جيشه وتماسكه، وقد بثّ فيه روح العزم والإخلاص، وقد وثق بالنصر والفتح والتغلّب على جيش الإمام.

٣- وتعرضت البلاد الإسلامية الخاضعة لحكم الإمام لحملات إرهابية عنيفة كانت تشنها العصابات المجرمة التي يبعثها معاوية لإشاعة الخوف والذعر فيها، وقد تعرضت المناطق القريبة من عاصمة الإمام لهجمات الإرهابيين من كلاب معاوية، والإمام لم يتمكن من حمايتها وحفظ الأمن والاستقرار فيها فكان يدعو بحرارة جأشه للذب عن حياض الوطن، وحمايته من الاعتداء فلم يستجب له أحد منهم.

٤- واحتلت جيوش معاوية مصر احتلالاً عسكرياً، وبذلك خرجت عن حكم الإمام، وقد أصيبت حكومة الإمام بنكسة كبيرة، ولم تعد بعد هذه الأحداث إلا شكلاً خاوياً في ميدان الحكم.

مصراع الإمام: —

وبقى الإمام الممتحن في أرباض الكوفة قد أحاطت به المحن والأزمات يتبع بعضها بعضاً، يرى باطل معاوية قد استحکم، وشره قد استفحل وهو لا يتمكن أن يقوم بأى عمل لتغيير الأوضاع الاجتماعية المتدهورة المنذرة بأفول دولة الحق، وإقامة حكومة الظلم والجور.

لقد استوعبت المحن الشاقة التي أحاطت بالإمام نفسه الشريفة فراح يدعو الله، ويتوسل إليه بحرارة أن ينقله إلى جواره، ويريه من هذا العالم المليء بالفتن والأباطيل، واستجاب الله دعاء الإمام فقد عقدت عصاة مجرمة من الخوارج مؤتمراً في مكة، وأخذوا يذكرون بمزيد من الأسى والحزن قتلاهم الذين حصدت رؤوسهم سيوف الحق في النهروان، وعرضوا ما منى به العالم الإسلامي من الفتن والانشقاق وألقوا تبعة ذلك حسب زعمهم على الإمام أمير المؤمنين، ومعاوية وعمرو بن العاص، فقرروا القيام باغتيالهم، وعينوا لذلك وقتاً خاصاً، وضمن لهم ابن اليهودية عبد الرحمن بن ملجم اغتيال الإمام أمير المؤمنين، ومن الجدير بالذكر أن مؤتمرهم كان بمرأى ومسمع من السلطة المحلية بمكة، وأكبر الظن أنها كانت على اتصال معهم وأن القوى المنحرفة عن الإمام قد أمدت ابن ملجم بالمال ليقوم باغتيال الإمام.

وعلى أى حال فقد قفل ابن ملجم راجعاً إلى الكوفة وهو يحمل شرّ أهل الأرض، ويحمل الكوارث المدمرة للمسلمين، وفور وصوله إلى الكوفة اتصل بعميل الأمويين المنافق الأشعث بن قيس، وأخبره بمهمته، فشجعه على اقتراف الجريمة، وأبدى له تقديم جميع ألوان المساعدات لتنفيذها.

وفى ليلة التاسع عشر من رمضان شهر الله المبارك أتجه زعيم الموحدّين وسيّد المتّقين نحو مسجد الكوفة ليؤدّي صلاة الصبح، فأقبل نحو الله، فشرع في صلاته، ولما رفع رأسه من السجود علاه ابن اليهودية بالسيف فشقّ رأسه الشريف الذي كان كنزاً من كنوز العلم والحكمة والإيمان، والذي ما فكر إلا بتوزيع خيرات الله على البؤساء والمحرومين، وإشاعة الحق والعدل بين الناس.

ولمّا أحسّ الإمام بلذع السيف علت على شفتيه ابتسامة الرضا والظفر، وراح يقول:

(فزت وربّ الكعبة..).

لقد فزت يا إمام المتّقين لأنك في طيلة حياتك لم توارب ولم تخادع ولم تداهن، ومضيت على بصيرة من أمرك مقتدياً بسّد المرسلين ابن عمك صلى الله عليه وعليك، فكان ذلك حقاً هو الفوز العظيم.

لقد فزت يا إمام المصلحين، فقد وهبت حياتك لله وجاهدت في سبيله جهاد المنيبين والمخلصين.

لقد فزت أيها الإمام الحكيم لأنك خبرت الدنيا، وعرفت دار فناء وزوال فطلّقتها ثلاثاً، وأعرضت عن زينتها ومباهجها واتجهت صوب الله فعملت كل ما يرضيه، وما يقربك إليه زلفى.

وحمل الإمام إلى منزله، وقد فاضت عيون الناس بالدموع وتقطّعت النفوس ألماً وحنناً، وكان الإمام هادئ النفس قدير العين، قد تعلّق قلبه بالله، وهام في مناجاته، وقد سأله مرافقة الأنبياء والأوصياء، وأخذ يلقي نظراته على أولاده، وخصّ ولده أبا الفضل بالعطف والحنان، واستشفّ من وراء الغيب أنه ممن يرفع راية القرآن، ويقوم بنصرة أخيه ريحانة رسول الله المنافع الأول عن رسالة الإسلام.

وصايا خالدة: —

ولما شعر الإمام العظيم بدنوّ أجله المحتوم أخذ يوصى أولاده بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، وأمرهم أن يجسّدوا الإسلام في سلوكهم واتجاهاتهم، وفيما يلي بعض بنود وصيّته.

أ - التحلّى بتقوى الله التي هي الأساس في بناء الشخصية الإسلامية على أساس متكامل من الوعي والازدهار.

ب - الالتزام بالحق قولاً وعملاً وبه تصان الحقوق وتسود العدالة الاجتماعية بين الناس.

ج - المناجزة الظالم والوقوف في وجهه، ومناصرة المظلوم ومساعدته، وفي ذلك إقامة للعدل الذي هو من أهمّ الأهداف الأصيلة التي ينشدها الإسلام.

د - السعى في إصلاح ذات البين، وإزالة البغضاء والكراهية بين المتخاصمين وهو من أفضل الأعمال وأهمّها في الإسلام لأن فيه إقامة لمجتمع متطوّر قائم على المحبة والمودة.

هـ - مراعاة الأيتام، والقيام بصلتهم، ورفع الحاجة عنهم، وهذا من جملة بنود التكافل الإسلامى الذى هو من أبداع ما شرّعه الإسلام فى نظامه الاقتصادى.

و - الإحسان إلى الجيران، والإغداق عليهم بالبرّ والمعروف لأنّ فيه إشاعة للمحبّة بين المسلمين، كما أنّه في نفس الوقت من أهمّ الوسائل في تماسك المجتمع الإسلامي ووحده.

ز - العمل بما في القرآن الكريم من أحكام وسنن وآداب فإنّه خير ضمان لصيانة سلوك الإنسان المسلم، وتهذيبه، ورفع مستواه.

ح - إقامة الصلاة في أوقاتها وأدائها على أحسن وجه فإنّها عمود الدين ومعراج المؤمن، وهي ترفع الإنسان إلى مستوى عظيم إذ تشرفه بالاتصال بخالق الكون وواهب الحياة.

ط - إحياء المساجد بذكر الله من العبادة والعلم، وتعتبر المساجد من أهمّ المراكز في إشاعة الآداب والفضائل بين المسلمين.

ي - الجهاد في سبيل الله بالأنفس والأموال لإقامة معالم الدين وإحياء السنّة، وإماتة البدعة.

ك - إشاعة المحبّة والمودّة بين المسلمين، وذلك بالتواصل والتوادد وترك التدابير والتقاطع، وغير ذلك مما يؤدّي إلى فصم عرى الوحدة بينهم.

ل - إقامة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر لأنّه مما يؤدّي إلى إقامة مجتمع سليم تسوده العدالة، أما ترك ذلك فإن له من المضاعفات السيّئة التي توجب ارتطام المجتمع بالفتن والبلاء كتولية الفساق والأشرار لشؤونهم، وعدم استجابة الدعاء من أفرادهم.

هذه بعض الوصايا الخالدة التي أدلى بها الإمام العظيم، وهو على فراش الموت (٣).

إلى جنّة المأوى: _____

وسرى السّم في جميع أجزاء بدن الإمام (عليه السلام) من جرّاء الضربة الغادرة التي عمّمه فيها ابن اليهودية عبد الرحمن بن ملجم، وأخذ الموت يدنو إليه سريعاً سريعاً، وقد استقبل إمام المتّقين الموت بثغر باسم، ونفس آمنة مطمئنة متعطّشة إلى لقاء الله راضية بقضائه وقدره، وكان لا يفتّر لحظة واحدة عن ذكر الله، وقراءة كتابه، وقد حفّ به أبناؤه وهم يذرفون أحرّ الدموع قد مزّق المصاب قلوبهم، وقد استقبل القبلة حامداً لله حتى ارتفعت روحه العظيمة إلى بارئها تحفّها ملائكة الرحمن، وأرواح الأنبياء والأوصياء وقد ازدهرت به جنان الخلد.

لقد توفّي عملاق الفكر الإنساني، ورائد العدالة الاجتماعية في الأرض، لقد عاش هذا الإمام العظيم غريباً في مجتمع لم يعرف مكانته، ولم يع قيمه وأهدافه التي كان منها أن ينفى البؤس والشقاء من الأرض، وينفي الحاجة والحرمان عن بني الإنسان، فيوزع عليهم خيرات الله، فنارت في وجهه العصاة المجرمة من الرأسمالية القرشية، وأوغاد الأمويين الذين اتخذوا مال الله دولاً، وعباد الله خولاً، وقد صمد الإمام في وجوههم، ولم يثن عن عزمه الجبار حتى استشهد مناضلاً عن قيمه وأهدافه.

تجهيزه: —

وانبرى الإمام الحسن (عليه السلام)، ومعه السادة الكرام من إخوانه ومن بينهم أبو الفضل العباس (عليه السلام) إلى تجهيز الجثمان العظيم، فغسلوا الجسد الطاهر، ثم أدرجوه في أكفانه، وهم يذرفون أحرّ الدموع وبعد ذلك حملوه إلى مقرّه الأخير، فدفنوه في مرقده المطهر في النجف الأشرف، وقد أعزّه الله، ورفع من شأنه فجعله كعبة للوافدين، ولم يحظ مرقده من مرقد أولياء الله كما حظى مرقده الشريف فقد أحيط بهالة من التعظيم والتقديس عند كافة المسلمين.

لقد شاهد سيّدنا أبو الفضل العباس (عليه السلام) خلافة أبيه، وما رافقها من الأحداث الجسام، وما قاساه أبوه من المصاعب والمشاكل في سبيل تطبيق العدالة الاجتماعية على واقع الحياة العامة بين المسلمين وقد تنكّرت له وحاربتة القوى الباغية على الإسلام، والحاكمة على الإصلاح الاجتماعى.

لقد وعى العباس الأهداف المشرقة التي كان ينشدها أبوه فأمن بها، وجاهد في سبيلها، وقد انطلق مع أخيه سيّد الشهداء إلى ساحات الشرف والجهاد من أجل أن يعيدا للمسلمين سيرة أبيهما الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) ومنهجه المشرق في عالم السياسة والحكم.

خلافة الإمام الحسن: —

وتسلّم الإمام الحسن (عليه السلام) قيادة الدولة الإسلامية بعد وفاة أبيه، وكانت الأوضاع الاجتماعية والسياسية، كلها في غير صالحه، فالأكثرية الساحقة من الرؤساء والقادة العسكريين كانت اتجاهاًتهم وميولهم سرّاً وعلانية مع معاوية، فقد غزاهم بذهبه، واسترقهم بأمواله، كما انتشرت بين كتائب جيشه فكرة الخوارج التي كانت سوسة تنخر في معسكره، وتعلن عدم شرعية خلافته، وخلافة أبيه من قبل، ومن ثمّ كان إقبال الجماهير على مبايعته فاتراً جداً، وكذلك لم تندفع القوات المسلّحة بحماس إلى بيعته، وإنّما كانت مرغمة على ذلك، الأمر الذي أوجب تريب الإمام الحسن منهم، ويرى المراقبون للأوضاع السياسية في جيش الإمام أنّه قد ماج في الفتنة وارتطم في الشقاء، وأن خطره على الإمام كان أعظم من خطر معاوية وأنّه لا يصلح بأى حال من الأحوال لأن يخوض الإمام به أى ميدان من ميادين الحرب.

وعلى أى حال فان الإمام قد تسلّم قيادة الدولة، وقد منيت بالانحلال والضعف، وشيوع الفتن والاضطراب فيها، وان من العسير جداً السيطرة على الأوضاع الاجتماعية، وإخضاع البلاد إلى عسكره. اللهم إلا بسلوك أمرين:

- الأوّل: - إشاعة الأحكام العرفية في البلاد، ومصادرة الحريات العامة، ونشر الخوف والإرهاب، وأخذ الناس بالظنّة والتهمة، وهذا ما يسلكه عشاق الملك والسلطان حينما يمتنون بمثل هذه الأزمت في شعوبهم.

ص: ٤٦

أما أئمة أهل البيت: فإنهم لا يرون مشروعية هذه السياسة، وإن أدت إلى الانتصار، ويرون ضرورة توفير الحياة الحرة الكريمة للشعب، وإقصاء الوسائل الملتوية عنه.

- الثاني: - تقديم الطبقة الرأسمالية وذوى النفوذ على فئات الشعب، ومنحهم الأموال والامتيازات الخاصة، والوظائف المهمة ولو فعل ذلك الإمام الحسن لاستقرت له الأمور، وما منى جيشه بالتمرد والانحلال، إلا أنه ابتعد عن ذلك ابتعاداً مطلقاً لأنه لا تبيحه شريعة الله.

لقد كان منهج الإمام الحسن فى سياسته واضحاً لا لبس فيه ولا غموض وهو التمسك بالحق، وعدم السلوك فى المنعطفات، واجتناب الطرق الملتوية، وإن أدت إلى الظفر والنصر.

إعلان معاوية للحرب: —

وبادر معاوية إلى إعلان الحرب على سبط رسول الله (صلى الله عليه وآله) لأنه على علم بما منى به جيش الإمام من الانحلال والخيانة فأغلب قادة الفرق، وضباط الجيش، وسائر المراتب قد رشاهم معاوية بذهبه وأمواله، ومناهم بالوظائف العالية، كما كاتب بعضهم بأن يزوجه بإحدى بناته، فقد استعمل الرشوة معهم على نطاق واسع، وقد استجابوا له، وضمنوا له تسليم الإمام أسيراً متى شاء وأراد، أو اغتياله، وقد حفزته هذه العوامل لاستعجال الحرب وحسم الموقف من صالحه.

وزحف معاوية بجيوشه المتناسكة والمطبعة صوب العراق، ولما علم الإمام الحسن بذلك جمع قواته المسلحة، وأعلمهم بالأمر ودعاهم إلى الجهاد وردّ العدوان فوجموا وساد عليهم الذعر والخوف فلم يجبه أحد منهم فقد آثروا العافية، وسئموا من الحرب، ولما رأى تخاذلهم الزعيم الكبير عدى بن حاتم تميّز غيظاً وغضباً، واندفع بحماس بالغ نحوهم فجعل يؤنّبهم على هذا التخاذل، وأعلن استجابته المطلقة لدعوة الإمام، ودعم موقفه كل من الزعيم الشريف قيس بن سعد بن عباد، ومعقل بن قيس الرياحى، وزيايد بن صعصعة التميمى فأخذوا يلومونهم على هذا الموقف الذى ليس فيه شرف ولا إنصاف، ويبعثونهم إلى ساحات الجهاد.

وخرج الإمام الحسن (عليه السلام) من فوره لمقاومة معاوية، وسار معه أخلاط من الناس حتى انتهى إلى النخيلة فاستقام فيها حتى التحمت به فصائل من جيشه المتخاذل، ثم ارتحل حتى انتهى إلى دير عبد الرحمن فأقام به ثلاثة أيام، ثم واصل سيره لا يلوى على شىء.

فى المدائن: —

وانتهى الإمام، ومعه بعض الفرق من جيشه إلى المدائن، فأقام بها، وقد أحاطت به المصاعب والأزمات فقد عانى من جيشه الممزق والخائن ألواناً شاقّة وعسيرة من المحن والمشاكل، وابتلى بما لم يبتل به أحد من قادة المسلمين وخلفائهم، وكان من بين ما امتحن به:

١- خيانة القائد العام:

وكان من أفسى ما ابتلى به الإمام في تلك المرحلة الحساسه خيانة ابن عمه عبيد الله بن العباس القائد العام لقواته المسلحة، فقد أرشاه معاوية بما يقارب المليون درهم، فولّى الخائن الجبان منهزماً تحت جناح الليل البهيم يصحب معه العار والخزي، فالتحق بمعسكر معاوية، ولما علم الجيش بذلك اضطرب اضطراباً هائلاً، وماج في الفتنة والشقاء، ودبّت روح الخيانة في جميع قطعات الجيش كما خان جماعة من ذوى الرتب العليا في الجيش فالتحقوا بمعسكر معاوية بعد أن أرشاهم بأموالهم.

إن خيانة عبيد الله من أفسى الضربات التى حلّت بجيش الإمام، فقد فتحت أبواب الخيانة على مصراعيها لذوى الضمائر القلقة لبيع ضمائرهم على معاوية، كما أدّت إلى انهيار معنويات جيش الإمام، وفي نفس الوقت كانت من أفسى الصدمات التى واجهها الإمام في تلك الفترة العصبية فقد ألقّت له الأضواء على نفوس أغلب قادة جيشه، وأنهم مجموعة من الخونة الذين لا يملكون أى رصيد دينى أو وطنى.

٢- محاولات لاغتيال الإمام:

ولم تقتصر محنة الإمام وبلواه من جيشه إلى هذا الحدّ، وإنما امتدّت إلى ما هو أعظم من ذلك، فقد قام عملاء الأمويين وبهائم الخوارج بعدة عمليات لاغتيال الإمام، وقد فشلت جميعها وهى:

أ- رمى الإمام بسهم وهو فى أثناء الصلاة، ولم يؤثّر فيه شيئاً.

ب - طعنه بخنجر فى أثناء الصلاة.

ج - طعنه فى فخذه.

وضاقت الدنيا على ريحانة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وطافت به المحن والأزمات وأيقن أنّه لا محالة إمّا أن يغتال، ويضاع دمه هدراً أو يلقى عليه القبض ويبعث أسيراً إلى معاوية، وأجال النظر فى هذه الأمور فأفرغته إلى حدّ بعيد.

٣- الحكم عليه بالكفر:

وتماذى الخونة والعملاء فى جيش الإمام فى الجريمة والشرّ، فقد قابلوا الإمام بكلمات كانت أشدّ عليه من ضرب السيوف وطعن الرماح، فقد أقبل عليه الجراح بن سنان يشتدّ كأنّه الكلب وهو رافع عقيرته قائلاً:

(لقد أشركت يا حسن كما أشرك أبوك من قبل..).

ولم ينبر أحد من جيش الإمام إلى معاقبة هذا الأثيم، لقد انحرف هؤلاء الخونة عن الحق، ومالوا عن الطريق القويم، فقد حكموا على ابن بنت نبيهم وابن وصيه بالكفر والمروق من الدين، فأى ضلال مثل هذا الضلال؟.

٤- نهب أمتعة الإمام:

وعمد أولئك الأجلاف إلى نهب أمتعة الإمام فنزعوا منه بساطاً كان جالساً عليه، وسلبوا منه رداءه، ولم تكن هناك أية حماية للإمام من جيشه، فقد جرت هذه العملية بمرأى ومسمع منهم.

هذه بعض الأحداث المروعة التي عاناها الإمام (عليه السلام) في المدائن وهي تلزمه بالصلح والتخلى عن ذلك المجتمع المصاب بأخلاقه، وعقيدته.

ضرورة الصلح: —

أمّا صلح الإمام الحسن (عليه السلام) مع معاوية فقد كان ضرورياً حسب الأعراف السياسية، كما كان واجباً شرعياً مسؤولاً عن تنفيذه أمام الله والأمة، فإنه لو فتح باب الحرب بجيشه المنهزم نفسياً لتغلب عليه معاوية بأول حملة، ولما أمكنه أن يحقق أى نصر، وفي تلك الحالة لا يخلو أمره من إحدى حالتين: إمّا القتل أو الأسر، فإن قتل فلا تستفيد منه القضية الإسلامية لأنّ معاوية بما يملك من دبلوماسية مبطنّة بالخداع والمكر والنفاق، سوف يلقي التبعة على الإمام فى قتله، ويبرئ نفسه من أية مسؤولية، وأما إذا لم يقتل الإمام، وحمل إلى معاوية أسيراً، فإنه من دون شكّ سوف يعفو عنه، وبذلك يسجّل له يداً بيضاء على الأسرة النبوية، ويمحو عنه وعن أسرته وصمة الطليق التي وصمهم بها النبي (صلى الله عليه وآله).

وعلى أىّ حال فإن الإمام الحسن (عليه السلام) قد اضطرّ إلى الصلح وأرغم عليه، ولم تكن هناك أية مندوحة للعدول عنه، وقد جرى الصلح حسب شروط ذكرناها بالتفصيل مع تحليلها فى كتابنا (حياة الإمام الحسن (عليه السلام))، وممّا لا شكّ فيه حسب المقاييس العلمية والسياسية أن الإمام أبا محمد قد انتصر فى هذا الصلح، فقد أبرز حقيقة معاوية الجاهلية، وقد ظهرت خفايا نفسه، وما يكنّه من حقد وعداء للإسلام وللمسلمين، فإنه حينما استتبّ له الأمر عمد بشكل سافر إلى محاربة الإسلام والانتقام من أعلامه أمثال الصحابى العظيم حجر بن عدى، وأخذ بجرائمه للمسلمين المصاعب والكوارث، وألقاهم فى شرّ عظيم، وسوف نتحدّث عن ذلك فى البحوث الآتية.

وبعد ما انتهى الإمام أبو محمد من الصلح غادر الكوفة التي غدرت به وبأبيه لتستقبل جور معاوية وظلمه، وكان معه أهل بيته واخوته، ومن بينهم أخوه وعضده أبو الفضل العباس، وأخذوا يجدون السير لا يلوون على شىء حتى انتهوا إلى يثرب، وقد استقبلتهم بحفاوة بالغة البقيّة الباقية من الصحابة وأبنائهم، واستقرّ الإمام فى يثرب، وقد التفّ حوله الفقهاء والعلماء فأخذ يغذّهم بعلومه ومعارفه، ويغدق على البؤساء والمحرومين من فيض جوده وكرمه، وقد استعادت يثرب بوجوده ما فقدته من القيادة الروحية للمسلمين حينما غادرها وصّى رسول الله (صلى الله عليه وآله) وباب مدينة علمه الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام).

وعلى أىّ حال فقد شاهد أبو الفضل العباس (عليه السلام) ما جرى على أخيه الزكىّ أبى محمد (عليه السلام) من المحن الشاقة

والعسيرة، ورأى غدر أهل الكوفة، وخيانتهم له، ونكثهم لبيعتهم له، وقد عرفته هذه الأوضاع السياسية والاجتماعية حقيقة المجتمع، وأن الغالبية الساحقة منه ينسابون وراء مصالحهم وليس للقيم الدينية أى أثر فى نفوسهم، وبهذا نظوى الحديث عن بعض الأحداث المروعة التى شاهدها أبو الفضل العباس (عليه السلام).

الهوامش

١ - حياة الإمام الحسين ٣: ٨٠.

٢ - حياة الإمام الحسن ١: ٣٥٨ الطبعة الثالثة.

٣ - يلاحظ نهج البلاغة فقد حفل بهذه الوصايا القيّمة.

كابوس رهيب

وتسلّم معاوية قيادة الدولة الإسلامية بعد صلحه مع الإمام الحسن (عليه السلام)، وقد تحقّقت آماله الشريرة فى القضاء على الدولة العلوية التى هى دولة المحرومين والمضطهدين، والتى كانت امتداداً ذاتياً لحكومة النبىّ (صلى الله عليه وآله) وتجسيداً حياً لأهدافه ومتطلّباته الرامية لرفع مستوى الإنسان وتطوير حياته، وقد انهارت هذه القيم حينما سقطت الدولة الإسلامية صريعة بيده، فقد تبدّلت المبادئ والقيم والأخلاق التى ينشدها الإسلام إلى عكسها، وخرج العالم الإسلامى من عالم الدعة والرخاء والاستقرار إلى كابوس مرعب تحفّه المحن والكوارث، وتخيم عليه العبودية والذل.

لقد تنكّر معاوية لجميع القيم والأعراف، وساس المسلمين سياسة لم يألّفوها من قبل، ويرى المراقبون لسياسته أن انتصاره إنّما هو انتصار للوثنية بجميع مساوئها، يقول السيّد مير على الهندى:

(ومع ارتقاء معاوية الخلافة فى الشام عاد حكم التوليغارشية الوثنية السابقة، فاحتلّ موقع ديمقراطية الإسلام، وانتعشت الوثنية بكل ما يرافقها من خلاعات، وكأنّها بعثت من جديد، كما وجدت الرذيلة والتبدل الخلقى لنفسها متّسعاً فى كل مكان ارتادته رايات حكام الأمويين من قادة جند الشام..)(١).

لقد تعرّض المسلمون فى ذلك العهد الأسود إلى أزمات شاقة وعسيرة وامتحنوا كأشدّ ما يكون الامتحان، ونعرض - بإيجاز - إلى بعض ما عانوه من الكوارث.

ص: ٥٠

وعمد ابن هند إلى إبادة القوى الواعية في الإسلام، وتصفيتها جسدياً فقد ساق كوكبة منهم إلى ساحات الإعدام، وفيما يلي بعضهم:

١- حجر بن عدى

حجر بن عدى الكندى علم من أعلام الإسلام، وبطل من أبطال الجهاد ومن أبرز طلائع المجد والفخر للأمة العربية والإسلامية، ومن النماذج المشرقة الذين تخرّجوا من مدرسة الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) ووعوا قيمه وأهدافه، وقد وهب هذا العملاق العظيم حياته لله فتار في وجه الإرهابي المجرم زياد بن أبيه حينما أعلن رسمياً سب الإمام أمير المؤمنين مفجّر الفكر والنور في دنيا الإسلام، والمؤسس الثاني في بناء العقيدة الإسلامية بعد ابن عمّه وسيّد الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله).

لقد استحلّ الطاغية المجرم زياد دم المجاهد الكبير حجر بن عدى حينما جابهه بالإنكار على سبّه للإمام، فألقى عليه القبض، وبعثه مخفوراً مع كوكبة من أعلام المجاهدين في الإسلام إلى أخيه في الجريمة معاوية بن هند، فصدرت الأوامر منه بإعدامهم في (مرج عذراء) ونفّذ الجلادون فيهم حكم الإعدام فخرت جثثهم الزواكى على الأرض وهي معطرة بدم الشهادة والكرامة، تضىء للناس معالم الطريق نحو حياة حرة كريمة لا سيادة فيها للظالمين والمستبدّين.

٢- عمرو بن الحمق:

ومن شهداء الإسلام الخالدين عمرو بن الحمق الخزاعي الصحابي الجليل، كان أثيراً عند النبي (صلى الله عليه وآله) وقد دعا له بأن يمتّعه الله بشبابه، فاستجاب الله دعاءه فقد أخذ عمرو بعنق الثمانين عاماً ولم تر في كريمته شعرة بيضاء (٢).

وقد وعى عمرو القيم الإسلامية وآمن بها إيماناً عميقاً، وجاهد في سبيلها كأعظم ما يكون الجهاد، ولما ولي الجلاد زياد بن أبيه على الكوفة من قبل أخيه اللاشعري معاوية أوعز إلى مباحته وجلاوزته بملاحقة عمرو ومطاردته لأنّه من أعلام شيعة الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام)، وفرّ عمرو مع زميله رفاعة بن شداد إلى الموصل، وقبل أن ينتهيا إليها كمنّا في جبل ليستجماً فيه، فشعرت بهما الشرطة المقيمة هناك، فارتابت منهما، فألقت القبض على عمرو، وفرّ صاحبه، وجاءت الشرطة بعمرو مخفوراً إلى عبد الرحمن الثقفي حاكم الموصل، فرفع أمره إلى معاوية فأمر بطعنه تسع طعنات بمشاقص (٣) فبادرت الجلوازة إلى طعنه، فمات في الطعنة الأولى، واحتزّوا رأسه فأمر أن يطاف به في دمشق وهو أول رأس طيف به في الإسلام، ثم أمر به ابن هند أن يحمل إلى زوجته السيّدة آمنه بنت شريد، وكانت في سجنه، فلم تشعر إلا ورأس زوجها في حجرها فذعرت، وكادت أن تموت، ثم حملت إلى معاوية، وجرت بينها وبينه محاورة شديدة دلّت على مسخ معاوية وتجرّده من جميع القيم الإنسانية، وقد ذكرنا تفصيل ذلك في كتابنا (حياة الإمام الحسن - عليه السلام -).

٣- رشيد الهجرى:

رشيد الهجرى علم من أعلام الإسلام، وقطب من أقطاب الإيمان وقد أخلص كأشد ما يكون الإخلاص إلى وصى رسول الله (صلى الله عليه وآله) وباب مدينة علمه الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام)، وقد اعتقلته جلاوزة ابن زياد، وجاءت به مخفوراً إليه، فلما مثل عنده صاح به الباغى الأثيم:

(ما قال لك خليلك - يعنى الإمام علياً - إنا فاعلون بك؟..)

فأجابه بصدق وإيمان غير حافل به:

(تقطعون يدي ورجلي وتصلبوننى..).

فأراد الخبيث الدنس أن يكذب الإمام فقال:

(أما والله لأكذبن حديثه خلوا سبيله..).

فخلت الجلاوزة سبيله لكنه لم يلبث إلا قليلاً حتى ندم على ذلك فأمر بإحضاره فلما مثل عنده صاح به:

لا نجد شيئاً أصلح مما قال صاحبك: (إنك لا تزال تبغى لنا سوءاً إن بقيت، اقطعوا يديه ورجليه..).

وبادرت الجلاوزة فقطعت يديه ورجليه، ولم يحفل هذا العملاق العظيم بما كان يعانيه من الآلام، وراح يذكر مساوى بنى أمية وجورهم ويحفز الجماهير على الثورة عليهم، وأسرت الجلاوزة إلى زياد فأخبروه بالأمر فأمرهم بقطع لسانه، فقطع وتوفى فى الحال هذا المجاهد العظيم (٤) الذى نافع عن عقيدته وولائه لأهل البيت حتى النفس الأخير من حياته.

هؤلاء بعض أعلام الإسلام الذين صفاهم ابن هند جسدياً لأنهم كانوا ينشرون القيم الإسلامية، ويذيعون بين الناس فضائل أهل البيت (عليهم السلام) الذين هم مصدر الوعى والفكر فى الإسلام.

مناهضة أهل البيت: _____

ولما استتب الأمر إلى معاوية سخر جميع أجهزة دولته ووسائل إعلامه لمناهضة أهل البيت الذين هم وديعة رسول الله (صلى الله عليه وآله) فى أمته، والعصب الحساس فى هذه الأمة، وقد استخدم هذا الذئب الجاهلى أخطر الوسائل فى مناهضتهم، ومن بين ما قام به:

ص: ٥٢

١- افتعال الأخبار ضدّهم:

وأقام معاوية شبكة من عملائه لوضع الأخبار وافتعالها على لسان النبيّ (صلى الله عليه وآله) للحطّ من شأن أهل بيته، والتقليل من أهميّتهم، وقد عمد الوضّاعون لافتعال الأخبار تارة في فضل الصحابة، لجعلهم قبال العترة الطاهرة، وقد عدّ الإمام الأعظم محمد الباقر (عليه السلام) أكثر من مائة حديث افتعل لهذا الغرض كما افتعلوا طائفة من الأخبار في ذمّ أهل البيت (عليهم السلام)، كما وضعوا أحاديث أخرى في مدح الأمويين، وخلق الفضائل لهم، وهم الذين ناجزوا الإسلام في جميع مراحل تأريخهم، ولم تقتصر الشبكة التخريبية على ذلك، وإنّما عمدت لافتعال الأخبار فيما يتعلّق بأحكام الشريعة الإسلامية، ومن المؤسف جدّاً أنّها دوّنت في الصحاح والسنن، وجعلت جزءاً من الشريعة الإسلامية، ولم يلتفت المؤلّفون إلى وضعها، وقد تصدّى بعض المحقّقين إلى تأليف بعض الكتب، ذكروا فيها بعض الأخبار الموضوعية، فقد ألف المحقّق السيوطي كتابه الشهير (الثالثي المصنوعة في الأخبار الموضوعية) ذكر فيه طائفة كبيرة من تلك الموضوعات، وقد سجّل المحقّق الأميني في (الغدير) أرقاماً لبعض الأخبار الموضوعية بلغت زهاء نصف مليون حديث، وعلى أي حال فإن من أعظم ما منى به الإسلام من الكوارث هي الأخبار الموضوعية التي شوّهت الواقع المشرق للإسلام، وألقت المسلمين في شرّ عظيم، فقد حجبتهم عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) وما أثر عنهم من الأخبار الصحيحة التي هي من ذخائر الإسلام.

٢- سبّ الإمام أمير المؤمنين:

وأعلن معاوية رسمياً سبّ الإمام أمير المؤمنين، وأوعز إلى ولاته وعمّاله أن يذيعوا ذلك بين المسلمين، واعتبره عنصراً أساسياً في بناء دولته، وإقامة حكومته، وأخذ الأذنان والعملاء ووعاظ السلاطين يصعدون سبّ الإمام وينتقصونه لا في نواديبهم الخاصة والعامة فحسب، وإنّما في خطب صلاة الجمعة، وسائر المناسبات الدينية معتقدين أن ذلك مما يوجب القضاء على شخصية الإمام، واندثار ذكره، وقد خابت ظنونهم، وتبت أيديهم، فقد عادت اللعنات عليهم وعلى من ولاهم ومكّنهم من رقاب المسلمين، فقد برز الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) على مسرح التاريخ البشري كألمع قائد إنساني أسّس معالم العدالة الاجتماعية، وأقام أركان الحقّ في الأرض.

لقد عاد الإمام في جميع الأعراف الدولية والسياسية أعظم حاكم ظهر في الشرق، وأول حاكم قد تبنى حقوق المظلومين والمضطهدين، وأعلن حقوق الإنسان، وأما خصومه الحقراء فهم أقزام البشرية، وأشرار خلق الله، فقد جنوا على الإنسانية جناية لا تعدلها أية جناية، فقد حجّبوا هذا العملاق العظيم أن يقوم بدوره في بناء الحضارة الإنسانية، وتطوير الحياة العامة في جميع مجالاتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

٣- استخدام معاهد التعليم:

واستخدم معاوية معاهد التعليم، وأجهزة الكتاتيب لتغذية النشء ببغض أهل البيت (عليهم السلام) الذين هم المركز الحساس في الإسلام، وغدّت هذه الأجهزة الناشئة المسلمة ببغض عترة النبي (صلى الله عليه وآله) وذريته، ولم يكن ذلك إلا إجراءً مؤقتاً، فقد عكس الله إرادته، وخيب آماله، فها هو الإمام أمير المؤمنين ملء فم الدنيا، قد استوعب ذكره المعطر لجميع لغات الأرض، وهو أنشودة الأحرار في كل زمان ومكان، والكوكب اللامع في سماء الشرق يهتدى بضوئه المصلحون، ويسير على منهجه المتّقون، وها هو معاوية وبنو أمية قد صاروا جرثومة الفساد في الأرض، ولا يذكرون إلا مع الخسران وسوء المصير.

لقد هزم معاوية في الميدان السياسي والاجتماعي، وأبرزت مخططاته السياسية المناهضة لأهل البيت (عليهم السلام) واقعه النفسى الملوث بالجرائم والآثام واستبان للجميع أنه أخطأ حاكم ظهر في الشرق العربي والإسلامي.

إشاعة الظلم: —

وأشاع معاوية الظلم والجور في جميع أنحاء العالم الإسلامي، فقد سلط على المسلمين ولأمة إرهابيين، قد نزع الرحمة من قلوبهم فأسرفوا باقتراف الجرائم والإساءة إلى الناس، وكان من أشدهم قسوة، وأكثرهم جرماً الإرهابي زياد بن أبيه فقد صب على العراق وإبلاً من العذاب الأليم، فكان يسوق المتهمين إلى ساحات الموت والإعدام من دون إجراء أى تحقيق معهم، فقد كان يحكم بالظنّ والتهمة، - كما أعلن ذلك في بعض خطبه - ولم يتحرّج من سفك الدماء بغير حقّ، ولم يتأثم في نشر الرعب والخوف بين الناس، فكان كأخيه اللاشرعي معاوية قد انتهك جميع حرّامات الله.

لقد عبّت البلاد الإسلامية من الظلم والجور، حتى قال القائل: إن نجا سعد فقد هلك سعيد، وكان من أشدّ الناس بلاءً وأعظمهم محنة شيعة أهل البيت (عليهم السلام) فقد أمعنت السلطة في ظلمهم، والاعتداء عليهم فزجت الكثير منهم في ظلمات السجون ووزنانات التعذيب، وسملت منهم الأعين، وأذاقتهم جميع صنوف التعذيب، لا لذنوب اقترفوه وإنما لولائهم لأهل البيت (عليهم السلام).

وقد شاهد أبو الفضل (عليه السلام) الصور المفجعة من الاضطهاد والتنكيل التي حلّت بشيعة أهل البيت، مما زاده ذلك إيماناً بضرورة الجهاد، والقيام بثورة ضدّ السلطة الأموية، لإنقاذ الأمة من محنتها، وإعادة الحياة الإسلامية بين المسلمين.

منح الخلافة ليزيد: —

واقترف معاوية أخطر جريمة في الإسلام فقد منح الخلافة الإسلامية إلى ولده يزيد الذي كان - فيما أجمع عليه المؤرّخون - مجرداً من جميع القيم الإنسانية، وغارقاً في الآثام والجرائم، وكان جاهلياً بما تحمل هذه الكلمة من معنى، فلم يؤمن بالله ولا باليوم الآخر كما أعلن ذلك فيما أثر عنه من شعر، فقد قال حينما أشرفت سبايا آل النبي (صلى الله عليه وآله) على دمشق:

نعب الغراب فقلت صح أو*** لا تصح فلقد قضيت من النبي ديونى
نعم لقد استوفى ديون الأمويين من ابن فاتح مكة فقد قتل أبناءه وسبى ذراريه، وقال مرة أخرى:
لست من خندف إذ لم أنتقم*** من بنى أحمد ما كان فعل

هذا هو يزيد فى إلهاده ومروقه من الدين وقد سلطه معاوية على رقاب المسلمين، فأمعن فى إعادة الحياة الجاهلية، وإزالة الإسلام فكراً وعقيدة من الصعيد الاجتماعى، كما أخذ للمسلمين المحن والكوارث، وذلك بإبادته لعنة النبى (صلى الله عليه وآله)، وسببه لذراريه.

اغتيال الشخصيات الإسلامية: _____

وأقدم معاوية على اغتيال الشخصيات الإسلامية التى لها مكانة مرموقة فى العالم الإسلامى، والتى تحظى باحترام بالغ فى نفوس المسلمين، حتى لا يزاحم أحد منهم ولده يزيد، ولا تتجه إليهم الأنظار، وفعلاً قام باغتيال هؤلاء وهم:

١- سعد بن أبى وقاص:

أما سعد بن أبى وقاص فهو فاتح العراق، وأحد أعضاء الشورى الذين رشحهم عمر إلى الخلافة الإسلامية، وقد ثقل وجوده على معاوية فدس إليه سمّاً قتلته (٥).

٢- عبد الرحمن بن خالد:

أمّا عبد الرحمن بن خالد فكان له رصيد شعبى فى أوساط أهل الشام وقد استشارهم معاوية فيمن يعقد له البيعة بعد وفاته فأشاروا عليه بعبد الرحمن، فأسرّها معاوية فى نفسه، وأضر له السوء، ومرض عبد الرحمن فأوعز معاوية إلى طبيب يهودى أن يعالجه ويسقيه سمّاً فسقاه السمّ فمات على أثر ذلك (٦).

٣- عبد الرحمن بن أبى بكر:

كان عبد الرحمن بن أبى بكر من أبرز العناصر المعارضة لمعاوية فى أخذه البيعة ليزيد، وقد أعلن معارضته له، وأشيع ذلك فى يثرب ودمشق، وقدم له معاوية رشوة لينال رضاه، وكانت مائة ألف درهم فأبى أن يقبلها، وقال: لا أبيع دينى بدنباى، وتعزوا بعض المصادر أن معاوية دس له سمّاً قتلته (٧).

٤- الإمام الحسن:

وأقضى الإمام الحسن (عليه السلام) مضجع ابن هند، وراح يطيل التفكير للتخلص منه، لأنه قد شرط عليه في بنود الصلح أن ترجع إليه الخلافة بعد هلاكه واستعرض معاوية حاشية الإمام وخاصته ليشتري ضمائرهم بأمواله لاغتتيال الإمام، فلم يقع نظره على أحد سوى الخاتنة جعدة بنت الأشعث زوجة الإمام، فهي من أسرة لم تنجب شريفاً قط، ولم يؤمن أى فرد منها بالقيم الإنسانية، وأوعز معاوية إلى مروان بن الحكم عامله على يثرب فاتصل بها، وقدم لها الأموال، ومنها بزواج يزيد، فاستجابت نفسها الخبيثة لاقتراف الجريمة، فناولها سمّاً فاتكأ، فأخذته، ودسّته للإمام، وكان صائماً، ولما وصل إلى جوفه تقطعت أمعاؤه، فالتفت إلى الخبيثة، فقال لها:

(قتلتيني، فتلك الله، والله لا تصيبن منى خلفاً، لقد غرّك - يعنى معاوية - وسخر منك، يخزيك الله ويخزيه..).

وأخذ سبط النبىّ (صلى الله عليه وآله) وريحانته يعانى آلاماً قاسية من شدة السم فقد تفاعل مع أجزاء بدنه، وقد ذبلت نضارته، واصفرّ لونه، وكان يلهج بذكر الله وتلاوة كتابه حتى ارتفعت روحه العظيمة إلى بارئها تحفها ملائكة الرحمن وأرواح الأنبياء.

لقد وافاه الأجل المحتوم، ونفسه العظيمة مترعة بالمصائب من ابن هند الذى جهد فى ظلمه، وصبّ عليه ألواناً قاسية من المحن والكوارث فسلب منه الخلافة، وتتبع شيعة أبيه قتلاً وسجناً، واسمعه سبّه، وسبّ أبيه وأخيراً سقاه السمّ فقطع أحشاءه.

تجهيزه:

وقام سيّد الشهداء (صلى الله عليه وآله) بتجهيز جثمان أخيه فغسل جسده الطاهر، وحمله المشيعون، وفى طليعتهم العلويون، وهم يذرفون أحرّ الدموع على فقيدهم العظيم، وجاءوا به إلى المرقد النبوى ليواروه بجواره.

فتنة الأمويين: —

ولما جىء بالجثمان المقدّس إلى قبر الرسول (صلى الله عليه وآله) ليوارى إلى جنبه ثار الأمويون وعلى رأسهم الوزغ ابن الوزغ مروان بن الحكم، فرفعوا أصواتهم أمام المشيعين (أيدفن الحسن بجوار جدّه، ويدفن عثمان بأقصى المدينة لا كان ذلك أبداً..). واشتدوا كالكلاب نحو السيّدة عائشة، وقد عرفوا انحرافها عن أهل البيت فأثاروا حفيظتها قائلين:

(لئن دفن الحسن بجوار جدّه ليذهبن فخر أبيك، وصاحبه..).

فوثبت وهى مغيظة محنقة تشقّ الجماهير، وقد رفعت عقيرتها قائلة: (لئن دفن الحسن بجوار جدّه - لتجز هذه - وأومات إلى ناصيتها..).

والتفتت إلى المشيعين قائلة:

ص: ٥٦

(لا تدخلوا بيوتي من لا أحبّ..).

وقد أعربت بذلك عن كوامن حقدّها على آل البيت (عليهم السلام)، ويتساءل السائلون من أين جاء لها البيت، ألم يرو أبوها عن النبيّ (صلى الله عليه وآله) أنّه قال:

(نحن معاشر الأنبياء لا نورث ذهباً ولا فضةً) فبييت النبيّ - حسب هذه الرواية - كبيت من بيوت الله لا يملكه أحدٌ، وإنّما هو لجميع المسلمين، وعلى هذا فكيف سمحت لأبيها وصاحبه أن يدفنا فيه، وإذا لم تعلم عائشة بهذه الرواية وأن النبيّ (صلى الله عليه وآله) كبقية الأنبياء يرثه ذريته، فالإمام الحسن (عليه السلام) هو الذي يرثه لأنّه سبطه، أما أزواج النبيّ (صلى الله عليه وآله) فلا يرثن من البيت، وإنّما يرثن من البناء حسبما ذكر الفقهاء.

وعلى أيّ حال فقد تمادى الأمويون بالشر، وظهرت خفايا نفوسهم المنطوية على الحقد والعداء لآل البيت فقد أوعزوا إلى عملائهم برمي جنازة الإمام، فرموها بقسيهم وسهامهم، وكادت الحرب أن تقع بين الهاشميين والأمويين، فقد أسرع أبو الفضل العباس (عليه السلام) إلى مناجزة الأمويين، وتمزيقهم، فمنعه أخوه الإمام الحسين (عليه السلام) من القيام بأى عمل امتثالاً لوصية أخيه، فقد أوصاه بأن لا يهراق في أمره ملء محجمة من دم.. وجرى بالجنمان الطاهر إلى بقيع الغرقد، فواروه فيه، وقد واروا معه الحلم والشرف والفضيلة، وقد انطوت بذلك أروع صفحة مشرقة من صفحات النبوة والإمامة.

لقد شاهد أبو الفضل العباس (عليه السلام) الأحداث المروعة التي حلّت بأخيه الإمام أبي محمد (عليه السلام) فزهده في الحياة، وكرهت له العيش، وحببت له الثورة والجهاد في سبيل الله.

معارضة الامام الحسين لمعاوية: —

ولمّا تمادى معاوية في سياسته الملتوية المناهضة لمصالح المسلمين والمعادية لأهدافهم، قام أبو الأحرار الإمام الحسين (عليه السلام) بالإنكار على معاوية، وأخذ يعمل بشكل مكثف إلى فضح معاوية، ويدعو المسلمين إلى الانتفاضة والثورة على حكومته، ونقلت أجهزة الأمن والمباحث في يثرب إلى معاوية هذه النشاطات السياسية المناهضة لحكومته ففزع من ذلك أشدّ الفزع، ورفع إليه مذكرة شديدة اللهجة يطلب فيها الكفّ عن معارضته، وهدّده باتخاذ الإجراءات القاسية ضدّه إن لم يستجب له، فأجابته أبو الأحرار بجواب شديد اللهجة وضعه فيه على طاولة التشريح، ونعى عليه سياسته الظالمة التي تفجّرت بكل ما خالف كتاب الله وسنة نبيّه، وندّد بما اقترفه من ظلم تجاه الأحرار والمصلحين أمثال حجر بن عدى وعمرو بن الحمق الخزاعي، ورشيد الهجري، وغيرهم من أعلام الفكر في الوطن الإسلامي.

ص: ٥٧

إنَّ جواب الإمام أبي الشهداء من ألمع الوثائق السياسية، فقد وضع الإمام فيها النقاط على الحروف، وعرض بصورة مفصّلة الأحداث الرهيبة التي جرت أيام حكومة معاوية، كما حدّد فيها موقفه المتّسم بالثورة على حكومة معاوية (٨).

مؤتمر الإمام الحسين في مكّة: _____

وعقد الإمام أبو عبد الله الحسين (عليه السلام) مؤتمراً سياسياً في مكّة المكرمة حضره جمهور غفير من المهاجرين والأنصار والتابعين ممن شهدوا موسم الحج، فقام فيهم خطيباً، وتحدّث ببلغ بيانه عمّا ألمّ بهم وبشيعتهم من ضروب المحن والبلاء في عهد الطاغية معاوية، وقد روى سليم بن قيس قطعة من خطابه جاء فيه بعد حمد الله والثناء عليه:

(أمّا بعد! فإن هذا الطاغية - يعنى معاوية - قد فعل بنا وبشيعتنا ما قد رأيتم وعلمتم، وشهدتم، وإنّى أريد أن أسألكم عن شيء، فإن صدقت فصدقوني وإن كذبت فكذبوني، اسمعوا مقالتي، واكتبوا قولي، ثم ارجعوا إلى أمصاركم، وقبائلكم، فمن أمنتكم من الناس، ووثقتكم به فادعوهم إلى ما تعلمون من حقنا، فإنّى أتخوّف أن يدرس هذا الأمر، ويغلب، والله متمّ نوره ولو كره الكافرون).

ويقول سليم بن قيس: وما ترك الحسين شيئاً مما أنزله الله فيهم من القرآن إلا تلاه وفسّره، ولا شيئاً مما قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) في أبيه وأخيه، وفي نفسه وأهل بيته إلا رواه، وفي كل ذلك يقول أصحابه: اللهم نعم قد سمعنا وشهدنا، ويقول التابعي: اللهم قد حدّثني به من أصدق، وأتّمنه من الصحابة، فقال (عليه السلام): أنشدكم الله إلا حدّثتم به من تتقون به وبدينه..(٩).

وكان هذا أوّل مؤتمر سياسى عرفه المسلمون فى ذلك الوقت، فقد شجب فيه الإمام سياسة معاوية الهادفة إلى حجب المسلمين عن أهل البيت (عليه السلام) وستر فضائلهم، وقد دعا الإمام حضّار ذلك المؤتمر إلى إشاعة مآثرهم، وإذاعة مناقبهم، وما ورد فى حقّهم من النبى (صلى الله عليه وآله) ليعرف المسلمون النوايا الشريرة التى يبيّتها معاوية ضدّ أهل البيت الذين هم العصب فى جسم الأمة الإسلامية.

هلاک معاوية: _____

واستقبل معاوية الموت، ونفسه قلقة مضطربة مما اقترفه من الأحداث الجسام التى باعدت بينه وبين الله، فكان يقول متبرماً: ويلى من ابن الأدبر - يعنى حجر بن عدى - إن يومى منه لطويل، نعم إن يومه لطويل وان حسابه لعسير أمام الله لا فى حجر فقط، وإنّما لدماء المسلمين التى سفكها بغير حقّ، فقد قتل عشرات الآلاف من المسلمين، وأشاع فى بيوتهم التّكل والحزن والحداد، وهو الذى حارب دولة الإسلام، وأقام الدولة الأموية التى اتخذت مال الله دولاً، وعباد الله خولاً، وهو الذى سلّط على المسلمين عصابة من أشرار خلق الله أمثال زياد بن أبيه الذى أمعن فى إذلال المسلمين، وظلمهم بغير حقّ، وهو الذى استخلف

من بعده ولده يزيد صاحب الأحداث والمواقف في الإسلام، وشبيهه جدّه أبي سفيان في اتجاهاته وميوله المعادية لله ولرسوله، وهو الذي دسّ السمّ إلى ريحانة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وسبطه الإمام الزكيّ أبي محمد (عليه السلام)، وهو الذي أعلن سبّ أهل البيت (عليه السلام) على المنابر، وجعل ذلك جزءاً من حياة المسلمين العقائدية إلى غير ذلك من المواقف التي اقترفها والتي تجعل حسابه شاقاً وعسيراً أمام الله.

وعلى أيّ حال فقد هلك معاوية فأهون به هالكاً ومفقوداً فقد انكسر باب الجور، وتضعفت أركان الظلم، كما أتته بذلك الزعيم العراقي الكبير يزيد بن مسعود النهشلي، أما خليفته ووليّ عهده يزيد فلم يكن حاضراً عند وفاته، وإنما كان مشغولاً برحلات الصيد وعربدات السكر ونغمة العيدان.

وبهذا ينتهي بنا الحديث عن حكومة معاوية التي هي أثقل كابوس مرّ على العالم الإسلامي في ذلك العصر، وقد شاهد سيّدنا أبو الفضل العباس (عليه السلام) المأسى الرهيبة التي دهمت المسلمين في ظلال هذا الحكم.

الهوامش

١ - روح الإسلام: ٢٩٦.

٢ - الإصابة ٢: ٥٢٦.

٣ - المشاقص: جمع مفردة مشقص، النصل العريفي أو سهم فيه نصل عريض.

٤ - سفينة البحار ١: ٥٢٢.

٥ - مقاتل الطالبين: ٢٩.

٦ - حياة الإمام الحسين ٢: ٢١٦.

٧ - حياة الإمام الحسين ٢: ٢١٦.

٨ - نصّ الرسالة ذكرها ابن قتيبة في الإمامة والسياسة ١/١٨٩ والكشي في رجاله.

٩ - حياة الإمام الحسين ٢: ٢٢٨ - ٢٢٩.

ص: ٥٩

مع الثورة الحسينية

ورافق أبو الفضل العباس (عليه السلام) الثورة الإسلامية الكبرى التي فجرها أخوه أبو الأحرار وسيد الشهداء الإمام الحسين (عليه السلام)، تلك الثورة العملاقة التي كانت من أهم الثورات العالمية، ومن أكثرها عطاءً لشعوب الأرض، فقد غيرت مجرى التاريخ وهزّت العالم بأسره، وحرّرت الإنسان المسلم، ودفعت القطعات الشعبية من المسلمين إلى التمرد على الظلم، ومناهضة الجور والطغيان.

وقد ساهم قمر بنى هاشم وفخر عدنان في هذه الثورة المباركة مساهمة إيجابية وفعالة، وشارك أخاه الحسين في جميع فصولها، وقد وعى جميع أهدافها وما تشده من خير ورحمة للشعوب المحرومة والمضطهدة، فأمن بها إيماناً مطلقاً.

لقد كان العباس أهم عضو بارز في هذه الثورة المشرقة، وقد لازم أخاه ممتثلاً لأمره، منفذاً لرغباته، شادداً لعضده، مؤمناً بقوله، مصدقاً لمبادئه، لم يفارقه في مسيرته الخالدة من يثرب إلى مكة، ثم إلى أرض الكرامة والشهادة، ففي كل موقف من ثورة الإمام الحسين (عليه السلام)، كان العباس معه، وشريكاً له... وتحدثت عن بعض الفصول التاريخية لهذه الثورة العظيمة التي كان العباس العلم البارز فيها.

رفض الإمام الحسين لبيعة يزيد —

وأعلن الإمام الحسين (عليه السلام) رسمياً رفضه الكامل لبيعة يزيد، وذلك حينما استدعاه حاكم المدينة الوليد بن عقبة في غلس الليل، وقد فهم الإمام ما أراد منه، فاستدعى عضده وأخاه أبا الفضل العباس وسائر الفتية من أهل بيته ليقوموا بحمايته، وأمرهم بالجلوس في خارج الدار فإذا سمعوا صوته قد علا فعليهم أن يقتحموا الدار لإتقائه، ودخل الإمام على الوليد فاستقبله بحفاوة وتكريم، ثم نعى إليه هلاك معاوية، وما أمره به يزيد من أخذ البيعة من أهل المدينة عامة ومن الحسين خاصة، فاستمهله الإمام حتى الصباح، ليجتمع الناس، وقد أراد أن يعلن أمامهم رفضه الكامل لبيعة يزيد، ويدعوهم إلى التمرد على حكومته، وكان مروان بن الحكم الذي هو من رؤوس المنافقين، ومن أعمدة الباطل حاضراً، فاندفع لإشعال نار الفتنة، فصاح بالوليد:

(لئن فارقت الساعة، ولم يبايع لا قدرت منه على مثلها أبداً حتى تكثر القتلى بينكم وبينه، أحبسه فإن بايع، وإلا ضربت عنقه..).

ووثب أبي الضيم في وجه مروان، فقال محتقراً له:

(يا بن الزرقاء أنت تقتلني أم هو؟، كذبت والله ولؤمت..).

ثم التفت أبو الأحرار إلى الوليد فأخبره عن عزمه، وتصميمه في رفضه لبيعة يزيد قائلاً:

(أيها الأمير، إنا أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، ومحلّ الرحمة، بنا فتح الله، وبنا ختم، ويزيد رجل فاسق، شارب الخمر، قاتل النفس المحرّمة، معلى بالفسق، ومثلى لا يبايع مثله، ولكن نصبح وتصبحون، وننظر وتنظرون، أيّنا أحقّ بالخلافة والبيعة..)(١).

لقد أعلن الإمام رفضه لبيعة يزيد في بيت الإمارة ورواق السلطنة، وهو غير حافل بالحكم القائم، فقد وطّن نفسه على التضحية والفداء لينتقد المسلمين من حكم إرهابى عنيف يستهدف إذلالهم، وإرغامهم على ما يكرهون.

لقد كان أبو الأحرار عالماً بفسق يزيد وفجوره ومروقه من الدين، ولو أقرّ لحكومته لساق المسلمين إلى الذلّ والعبودية، وعصف بالعقيدة الإسلامية في متاهات سحيقة من مجاهل هذه الحياة، ولكنّه سلام الله عليه صمد في وجه الأعاصير هازئاً من الحياة، ساخراً من الموت، فبنى للمسلمين عزاً شامخاً، ومجداً رفيعاً، ورفع كلمة الإسلام عالية في الأرض.

إلى مكة المكرمة: —

وصمّ أبو الأحرار على مغادرة يثرب، والتوجه إلى مكة المكرمة ليتخذ منها مقراً لبثّ دعوته، ونشر أهداف ثورته، ويدعو المسلمين إلى الانتفاضة على الحكم الأموي الذي يمثل الجاهلية بجميع أبعادها الشريفة، وقبل أن يتوجّه إلى مكة خفّ إلى قبر جدّه (صلى الله عليه وآله) وهو حزين قد أحاطت به الأزمت فشكى إليه ما ألمّ به من المحن والبلوى، ثم توجّه إلى قبر سيّدة النساء أمّه الزكّية فألقى عليها نظرات الوداع الأخير، وزار بعد ذلك قبر أخيه الزكّيّ أبي محمد (عليه السلام) ثم توجّه مع جميع أفراد عائلته إلى مكة التي هي حرم الله ليعوذ ببيتها الحرام الذي فرض الله فيه الأمن لجميع عباده، وكان أخوه أبو الفضل إلى جانبه قد نشر رايته ترفرف على رأسه، وقد تولّى جميع شؤونه وشؤون عائلته، وقام خير قيام بما يحتاجون إليه.

وسلك أبو الأحرار في مسيره الطريق العام فأشار عليه بعض من كان معه بأن يجيد عنه - كما فعل ابن الزبير - مخافة أن يدركه الطلب من السلطنة فأجابته بكل شجاعة وثقة في النفس:

(لا والله ما فارقت هذا الطريق، أو أنظر إلى أبيات مكة حتى يقضى الله في ذلك ما يحبّ ويرضى..).

وانتهى ركب الإمام إلى مكة ليلة الجمعة لثلاث ليال مضين من شعبان وحطّ رحله في دار العباس بن عبد المطلب، وقد احتفى به المكّيون خير احتفاء، وجعلوا يختلفون إليه بكرة وعشية، وهم يسألونه عن أحكام دينهم، وأحاديث نبيهم، كما توافد لزيارته القادمون إلى بيت الله الحرام من الحجّاج والمعتمرين من سائر الآفاق، ولم يترك الإمام (عليه السلام) لحظة تمرّ من دون أن

بيتّ الوعى الدينى والسياسى فى نفوس زائريه من المكيبين وغيرهم، ويدعوهم إلى التمردّ على الحكم الأموى الذى عمد على إذلالهم وعبوديتهم.

فزع السلطة بمكة: —

وفزعت السلطة المحليّة بمكة من قدوم الإمام إليها، واتخاذها مقراً لدعوته، ومركزاً لإعلان ثورته، وكان حاكم مكة الطاغية عمرو بن سعيد الأشدق، فقد رأى بنفسه تراحم المسلمين على الإمام، وسمع ما يقولونه إن الإمام أولى بالخلافة الإسلامية وأحقّ بها من آل أبي سفيان الذين لا يرجون لله وقاراً، فخف مسرعاً نحو الإمام فقال له بغيظ:

(ما أقدمك إلى البيت الحرام؟...).

وكان بيت الله العظيم ملك لبني أمية، وليس هو لجميع المسلمين، فأجابه الإمام بثقة وهدوء:

(أنا عائد بالله، وبهذا البيت...).

ورفع الطاغية بالوقت رسالة إلى سيده يزيد بن معاوية أحاطه بها علماً بمجىء الإمام إلى مكة، واختلاف الناس إليه، والتفافهم حوله، وأن ذلك يشكّل خطراً على حكومته، ففزع يزيد كأشدّ ما يكون الفزع حينما قرأ رسالة الأشدق فرفع فى الوقت مذكرة إلى ابن عباس يتهدّد فيها الحسين على تحركه، ويطلب منه التدخل فوراً لإصلاح الأمر وحجب الحسين عن مناهضته، فأجابه ابن عباس برسالة، نصحه فيها بعدم التعرّض للحسين، وأنه إنّما هاجر إلى مكة فراراً من السلطة المحليّة فى يثرب التى لم ترع مكانته، ومقامه.

ومكث الإمام (عليه السلام) فى مكة، والناس تختلف إليه، وتدعوه إلى إعلان الثورة على الأمويين، وكانت مباحث الأمن تراقبه أشدّ ما تكون المراقبة، وتسجّل جميع تحركاته ونشاطاته السياسية، وما يدور بينه وبين الوافدين عليه، وتبعث بجميع ذلك إلى دمشق لإطلاع يزيد عليه.

تحرك الشيعة فى الكوفة: —

وحيثما أشيع هلاك معاوية فى الكوفة أعلنت الشيعة أفراحها بموته وعقدوا مؤتمراً شعبياً فى بيت أكبر زعمائهم، وهو سليمان بن صرد الخزاعي، واندفعوا إلى إعلان الخطب الحماسية فيها وقد عرضوا بصورة شاملة إلى ما عانوه من الاضطهاد والتنكيل، فى أيام معاوية، وأجمعوا على بيعة الإمام الحسين، ورفض بيعة يزيد، وأرسلوا فى نفس الوقت وفداً منهم ليحثّ الإمام على القدوم إلى مصرهم لتشكيل حكومته ليعيد لهم الحياة الكريمة التى فقدوها فى ظلال الحكم الأموى ويسطّ فى بلادهم الأمن والرخاء، وترجع بلدهم عاصمة للدولة الإسلامية كما كانت أيام أبيه الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام)، وكان من بين ذلك

الوفد عبد الله البجلي، وأخذ الوفد يسرع في سيره حتى انتهى إلى مكة، فعرض على الإمام مطالب أهل الكوفة، وألحوا عليه بالإسراع إلى القدوم إليهم.

رسائل الكوفة: —

ولم يكتف الكوفيون بالوفد الذي بعثوه إلى الإمام، وإنما عمدوا إلى إرسال آلاف الرسائل إليه أعربوا فيها عن عزمهم الجادّ على نصرته، والوقوف إلى جانبه، وأنهم يفدون بأرواحهم وأموالهم، ويطلبون منه الإسراع إلى مصرهم ليشكّل فيه دولة القرآن والإسلام التي هي غاية آمالهم وحملوا الإمام المسؤولية أمام الله والتأريخ إن لم يستجب لدعوتهم. ورأى الإمام (عليه السلام) أنّه قد قامت عليه الحجّة الشرعية، وأن الواجب يحتمّ عليه إجابتهم.

إيفاد مسلم إلى الكوفة: —

ولما تتابعت الوفود والرسائل من أهل الكوفة على الإمام، وهي تحثّه على القدوم إليهم، لم يجد بداً من إجابتهم، فأوفد إليهم ثقته وكبير أهل بيته، والمبرز من بينهم بالفضيلة وتقوى الله ابن عمّه مسلم بن عقيل، وكانت مهمّته خاصة ومحدودة، وهي الوقوف على واقع الكوفيين، ومعرفة أمرهم، فإن صدقوا فيما قالوا توجه الإمام إليهم وأقام في مصرهم دولة القرآن.

ومضى مسلم يجد في السير لا يلقى على شيء حتى انتهى إلى الكوفة فنزل في بيت زعيم من زعماء الشيعة، وسيف من سيوفهم، وهو المختار بن أبي عبيدة الثقفي، الذي كان يتمتّع بخبرة سياسية واسعة، وشجاعة فائقة، ودراية تامة بالشؤون النفسية والاجتماعية، وقد فتح المختار أبواب داره إلى مسلم، وصار بيته مركزاً للسفارة الحسينية. ولما علمت الشيعة بقدوم مسلم سارعوا إليه مرحّبين به، ومقدمين له جميع ألوان الحفاوة والدعم، والتفوا حوله، طالبين منه أن يأخذ منهم البيعة للإمام الحسين (عليه السلام)، واستجاب لهم مسلم ففتح سجلاً للمبايعين وقد أحصى عددهم في الأيام القليلة بما يزيد على ثمانية عشر ألفاً، وفي كل يوم يزداد عدد المبايعين منهم، وألحوا عليه أن يرسل الإمام بالإسراع إلى القدوم إليهم ليتولّى قيادة الأمة.. ومن الجدير بالذكر أن السلطة المحليّة في الكوفة كانت على علم بمجريات الثورة، وقد وقفت منها موقف الصمت، فلم تتخذ أى إجراءات ضدها، ويعود السبب في ذلك إلى أن حاكم الكوفة النعمان بن بشير الأنصاري، كان من المنحرفين عن يزيد بسبب موافقه المعادية للأنصار، ومضافاً إلى ذلك فإن ابنته كانت زوجة المختار الذي استضاف مسلماً ووقف إلى جانبه.

ومن الطبيعي أنّه لم يرق لعملاء الأمويين وأذنانهم موقف النعمان المتسم بالليونة وعدم المبالاة بالثورة، فبادروا إلى الاتصال بدمشق، وعرفوا يزيد بموقف النعمان، وطلبوا المبادرة بإقصائه، وتعيين حاكماً حازماً يستطيع القضاء على الثورة، وإخضاع الجماهير إلى حكمه، وفرغ يزيد من الأمر، فأرسل إلى مستشاره الخاص سرجون، وكان دبلوماسياً محنكاً، فعرض عليه ما ألمّ

به وطلب منه أن يرشده إلى حاكم يتمكّن من السيطرة على الأوضاع المتفجّرة في الكوفة، فأشار عليه بتولّيه الإرهابي عبيد الله بن زياد فإنّه شبيهه بأبيه في التجردّ من كلّ نزعة إنسانية، وعدم المبالاة في اعتراف أبشع الجرائم، فاستجاب يزيد لرأيه، وكتب لابن زياد مرسوماً بولايته على الكوفة بعد أن كان والياً على البصرة فقط، وبذلك فقد أصبح العراق كلّهُ خاضعاً لسيطرته، وأصدر إليه الأوامر المشدّدة بالإسراع إلى الكوفة لاستئصال الثورة، والقضاء على مسلم.

سفر ابن زياد إلى الكوفة: —

وحيثما تسلّم ابن زياد المرسوم في ولايته على الكوفة توجه إليها فوراً، وأخذ يجد في السير لا يلقى على شيء مخافة أن يسبقه إليها الإمام الحسين (عليه السلام)، وحيثما أشرف على الكوفة غير ملابسه، ولبس ثياباً يمانية وعمامة سوداء ليوهم على الكوفيين أنّه الإمام الحسين، وقد اعتقدوا بذلك فأحاطوا به مرحّبين بقدمه، وهاتفين بحياته، فاستاء ابن زياد من ذلك كأشدّ ما يكون الاستياء، وأسرع في سيره مخافة أن ينكشف أمره، فيقتل، ولما انتهى إلى قصر الإمارة، وجد الباب مغلقاً فطرقه فأشرف عليه النعمان، وقد توهم أنّه الإمام الحسين (عليه السلام) فانبرى يخاطبه بلطف قائلاً:

(ما أنا بمؤدّ إليك أمانتى يا بن رسول الله، وما لي في قتالك من إرب)..

فصاح به ابن مرجانة:

(افتح لا فتحت فقد طال ليلك..).

وعرفه بعض من كان خلفه فصاح بالجماهير:

(أنّه ابن مرجانة، وربّ الكعبة..).

وكان ذلك كالصاعقة على رؤوسهم فولّوا منزهين إلى دورهم، وقد ملئت قلوبهم خوفاً ورعباً، وبادر الطاغية نحو القصر فاستولى على المال والسلاح، وأحاط به عملاء الأمويين أمثال عمر بن سعد وشمر بن ذى الجوشن، ومحمد بن الأشعث وغيرهم من وجوه الكوفة فجعلوا يحدثونه عن الثورة، ويعرفونه بأعضائها البارزين، ويضعون معه المخططات الرهيبة للقضاء عليها.

ولمّا أصبح الصبح جمع ابن مرجانة الناس في المسجد الأعظم، فأعلمهم بولايته على مصرهم، ومنّى أهل الطاعة بالصلة، وأهل المعصية بالعقاب الصارم ثم عمد إلى نشر الخوف والإرهاب بين الناس، وقد أمسك جماعة لم يجر معهم أى تحقيق فأمر بإعدامهم، وملاً السجون بالمعتقلين، واتخذ من ذلك وسيلة للسيطرة على البلاد.

ولمّا علم مسلم بقدم ابن مرجانة، وما قام به من الأعمال الإرهابية تحوّل من دار المختار إلى دار الزعيم الكبير هانئ بن عروة، وهو سيّد الكوفة، وزعيمها المطاع، وقد عرف بالولاء والمودة لأهل البيت (عليهم السلام)، وقد استقبله هانئ بحفاوة وتكريم، ورحبّ به كأعظم ما يكون الترحيب وفتح داره على مصراعها لشبيعة مسلم، واتخاذ القرارات لدعم الثورة، ومناهضة خصومها.

المخططات الرهيبة: ___

واتخذ ابن مرجانة سلسلة من المخططات أدّت إلى نجاحه في الميادين السياسية، والتغلّب على الأحداث، فبعد أن كانت الكوفة تحت قبضة مسلم انقلبت رأساً على عقب، وصارت مع ابن زياد، ومن بين تلك المخططات التي تمّ تنفيذها ما يلي:

- التجسس على مسلم:

وأول بادرة سلكها ابن مرجانة هي التجسس على مسلم، ومعرفة نشاطاته السياسية، والإحاطة بنقاط الضعف والقوة عنده والوقوف على جميع ما يجري عنده من الأحداث، وقد اختار للقيام بهذه المهمة مولاة معقلاً، وكان فطناً ذكياً ذا معرفة بالسياسة الماكرة، وأعطاه ثلاثة آلاف درهم، وأمره بالاتصال بأعضاء الثورة، وإعلامهم بأنه من الموالى الذين عرف أكثرهم بالولاء لأهل البيت (عليهم السلام)، وأنه قد جاء إلى مصرهم حينما بلغه أن داعية الإمام الحسين (عليه السلام) قدم إليهم ليأخذ البيعة منهم له، وأن عنده مالاً ليوصله له ليستعين به على حرب عدوّه.

ومضى معقل في مهمته، وجعل يفتش عن له معرفة بسفير الحسين فأرشد إلى مسلم بن عوسجة وهو من أعلام الشيعة، وأحد القادة الطليعيين في الثورة، فاتصل به، وأظهر له الولاء المزيّف لأهل البيت، والتعطّش الكاذب لرؤية سفيرهم مسلم، فاندفع ابن عوسجة بكلامه، وغرّه تلهّفه المصطنع لرؤية داعية الحسين، فأدخله على مسلم فبايعه، وأخذ المال منه، وجعل يتردّد عليه في كل يوم فكان - فيما يقول المؤرّخون (أول داخل عليه، وآخر خارج عنه، وقد وقف على جميع شؤون الثورة، وعرف أعضاءها، والمتحمّسين لها وما يستجدّ فيها من شؤون، وكان ينقل ذلك حرفياً إلى سيّده ابن مرجانة وبذلك فقد أحاط بجميع مجريات الأحداث، ولم يخف عليه أى شىء منها.

- اعتقال هانئ:

وقدم ابن زياد على أخطر عملية كتب له فيها النجاح لتنفيذ مخططاته، فقد قام باعتقال هانئ بن عروة سيد الكوفة، والزعيم الأوحد لقبائل مذحج التي كانت تشكّل الأكثرية الساحقة من سكّان الكوفة، وقد أشاع بذلك موجة من الخوف والإرهاب عند جميع الكوفيين، كما وجّه ضربة قاسية ومدمّرة للثورة، فقد استولى الرعب والفرع على أنصار مسلم، ومنوا بهزيمة نفسية ساحقة وعلى أى حال فإن هانئ حينما مثل أمام الطاغية استقبله بشراسة وعنف وطلب منه بالفور تسليم ضيفه الكبير مسلم، فأنكر هانئ أن يكون عنده لأنّه أحاط أمره بكثير من السرية والكتمان، فأمر ابن زياد بإحضار الجاسوس معقل، فلما حضر سقط ما

فى يد هانىء وأطرق برأسه إلى الأرض. ولكن سرعان ما سيطرت شجاعته على الموقف، فانتفض كالأسد ساخراً من ابن زياد ومتمرداً على سلطته، فامتنع كأشد ما يكون الامتناع من تسليم ضيفه إليه لأنه بذلك يسجل عاراً وخزياً عليه، فنار الطاغية فى وجهه، وثم أمر غلامه مهران أن يدنيه منه، فأدناه، فاستعرض وجهه المكرم بالقضيب، وضربه ضرباً عنيفاً حتى كسر أنفه، ونثر لحم خدييه وجنبية على لحيته حتى تحطم القضيب، وسالت الدماء على ثيابه، ثم أمر باعتقاله فى أحد بيوت القصر.

- انتفاضة مذحج:

ولما شاع اعتقال هانىء اندفعت قبائل مذحج نحو قصر الإمارة، وقد قاد جموعها الانتهازى القذر عمرو بن الحجاج، وهو من أذئاب السلطة ومن أحقر عملائها، وقد رفع عقيرته ليسمعه ابن زياد قائلاً:

(أنا عمرو بن الحجاج، وهذه فرسان مذحج، ووجوهها لم نخلع طاعة، ولم نفارق جماعة..).

وحفل كلامه بالخون والمسالمة للسلطة، وليس فيه أى اندفاع لإتقاذ هانىء، وإنما فيه التأييد والدعم لابن زياد، ولذا لم يكثر به، وأوعز إلى شريح القاضى، وهو من وعاظ السلاطين، ومن دعائم الحكم الأموى فأمره أن يدخل على هانىء، ويخرج لهم، ويخبرهم بأنه حى سالم وأنه يأمرهم بالانصراف إلى منازلهم، ودخل على هانىء فلما بصر به صاح مستجيراً:

(يا للمسلمين أهلكت عشيرتى!! أين أهل الدين، أين أهل المصر، أيلولنى وعدوهم..).

والتفت إلى شريح، وقد سمع أصوات أسرته قائلاً:

(يا شريح انى لأظنها أصوات مذحج وشيعتى من المسلمين، أنه إن دخل على عشرة نفر أتقذونى..).

وخرج شريح الذى باع آخرته وضميره على ابن مرجانة، فقال لمذحج:

(نظرت إلى صاحبكم، أنه حى لم يقتل..).

وبادر ابن الحجاج عميل الأمويين وخادمهم فرفع صوته لتسمعه مذحج قائلاً:

(إذا لم يقتل فالحمد لله..).

وولت قبائل مذحج منهزمة كأنما أتيح لها الخلاص من سجن، وقد صحبت معها الخيانة والخزى، ومن المؤكد أن هزيمة مذحج بهذه السرعة كانت نتيجة اتفاق سرى بين زعمائها وبين ابن مرجانة للقضاء على هانىء، ولو لا ذلك لهجمت على السجن وأخرجته.

لقد تنكرت مذحج لزعيمها الكبير الذى كان محسناً عليها فلم تف بحقوقه، وتركته أسيراً بيد الإرهابى ابن مرجانة، وهو يمعن فى إذلاله وقهره، فى حين أن مذحج كانت لهم السيادة على الكوفة.

ثورة مسلم: —

ولما علم مسلم ما جرى على هانئ العضو البارز في الثورة من الاعتداء والاعتقال، بادر إلى إعلان الثورة على ابن زياد، فأوعز إلى أحد قادة جيشه عبد الله بن حازم أن ينادى في أصحابه، وقد ملأ بهم الدور، فاجتمع إليه زهاء أربعة آلاف مقاتل أو أربعون ألفاً، كما في رواية أخرى، وتعالّت أصواتهم بشعار المسلمين يوم بدر (يا منصور أمت..).

وقام مسلم بتنظيم جيشه فأسند القيادات العامة إلى من عرفوا بالولاء والإخلاص لأهل البيت (عليهم السلام)، وزحف بجيشه نحو قصر الإمارة، وكان ابن زياد قد خرج إلى الجامع، وقد ألقى خطاباً على الجماهير تهدّد فيه على كل من يخلع يد الطاعة، ويناهض الدولة، وحينما أنهى خطابه سمع الضجّة وأصوات الثوّار وهتافاتهم بسقوطه فهاله ذلك، وسأل عن السبب فأخبر أن مسلم بن عقيل قد أقبل في جمهور من شيعته لحربه، ففرغ الجبان، واختطف الرعب لونه، وأسرع نحو القصر يلهث كالكلب من شدة الفرع والخوف وضاعت عليه الدنيا إذ لم تكن عنده قوة عسكرية تحميه سوى ثلاثين شرطياً وعشرين رجلاً من أشرف الكوفة الذين عرفوا بالعمالة للأمويين.

وتضاعف جيش مسلم، وقد نشروا الأعلام والسيوف، ودقّت طبول الحرب، وأيقن الطاغية بالهلاك إذ لم يكن بأوى إلى ركن شديد.

حرب الأعصاب —

وأمعن الطاغية في أقرب الوسائل، وأكثرها ضماناً لإنتقاده فرأى أن لا طريق له سوى حرب الأعصاب، ونشر الدعايات الكاذبة، وكان عالماً بتأثيرها على نفوس الكوفيين، فأوعز إلى عملائه من أشرف الكوفة ووجهها أن يندسوا بين صفوف جيش مسلم، فيذيعون الإرهاب، وينشرون الخوف، وانطلق العملاء بين قطعات جيش مسلم، فأخذوا يبشّون الأراجيف والكذب، وتناولت دعاياتهم ما يلي:

أ - تهديد أصحاب مسلم بجيوش أهل الشام، وأنها سوف تنكل بهم إن بقوا مصرين على متابعة مسلم.

ب - إن الحكومة سوف تقطع مرتباتهم وتحرمهم من جميع مواردهم الاقتصادية.

ج - إن الدولة ستزجّ بهم في مغازى أهل الشام.

د - إن الحكومة ستعلن فيهم الأحكام العرفية، وتسوسهم بسياسة زياد بن أبيه التي تحمل إشارات الموت والدمار.

وكانت هذه الإشاعات كالتقابل على رؤوسهم، فقد انهارت أعصابهم واضطربت قلوبهم، وجبنوا كأبشع ما يكون الجبن، وولّوا منهزمين على أعقابهم، وهم يقولون:

(ما لنا والدخول بين السلاطين..).

ولم يمض قليل من الوقت حتى فرّ معظمهم، وبقي ابن عقيل مع جماعة قليلة وقصد بهم نحو الجامع الأعظم ليؤدّي صلاة العشاءين، ففرّوا منهزمين في أثناء الصلاة، فقد قذف في قلوبهم الرعب، وسرت فيهم أوبئة الخوف، وما أنهى ابن عقيل صلاته حتى انهزموا جميعاً ولم يبق معه إنسان يدلّه على الطريق أو يأويه، وقد لبس الكوفيون بذلك ثياب العار والخزي، وأثبتوا أن ولاءهم لأهل البيت (عليهم السلام) كان عاطفياً، وغير مستقرّ في دخائل قلوبهم، وأعماق نفوسهم وأنهم لا ذمّة ولا وفاء لهم.

وسار مسلم فخر بنى هاشم متلذّداً في أزقة الكوفة، وشوارعها يلتبس فيها داراً لينفق فيه بقية الليل، فلم يظفر بذلك، فقد خلت المدينة من المارة، كأنما أعلن فيها منع التجول، فقد أغلق الكوفيون عليهم الأبواب مخافة أن تعرفهم مباحث الأمن، وعيون ابن زياد بأنهم كانوا مع ابن عقيل فتلقى عليهم القبض، وتعرّضهم للتنكيل وسوء العذاب.

في ضيافة طوعة: —

وبقى ابن عقيل حائراً لا يدري إلى أين مأواه وملجأه، فقد أحاطت به تيارات من الهموم، وكاد قلبه أن ينفجر من شدة الألم العاصف واستبان له أنه ليس في المصر رجل شريف يقوم بضيافته وحمايته، ومضى متلذّداً في أزقة الكوفة، وأنهى به السير إلى سيّدة كريمة، يقال لها طوعة هي سيّدة من في المصر بما تملكه من إنسانية وشرف ونبل، وكانت واقفة على باب دارها تنتظر قدوم ابنها، وهي فزعة عليه، من الأحداث الرهيبة التي منى بها المصر، ولما رآها مسلم بادر نحوها فسلم عليها، فردّت (عليه السلام)، ووقف مسلم، فأسرعت قائلة:

(ما حاجتك؟..).

(اسقيني ماءً..).

وبادرت السيدة فجاءته بالماء فشرب منه، ثم جلس فارتابت منه فقالت له:

(ألم تشرب الماء؟..).

(بلى..).

(اذهب إلى أهلك إن مجلسك مجلس ريبة..).

وسكت مسلم فأعادت عليه القول، وطلبت منه الانصراف من باب دارها ومسلم ساكت، فدعرت منه، وصاحت به:

(سبحان الله!! إني لا أحلّ لك الجلوس على باي..).

ولما حرّمت عليه الجلوس نهض، وقال لها بصوت خافت حزين النبرات:

(ليس لى فى هذا المصر منزل ولا عشيرة، فهل لك إلى أجر ومعروف أن تقومى بضيافتى فى هذه الليلة، ولعلّى أكافئك بعد هذا اليوم..).

وشعرت المرأة بأن الرجل غريب، وأنه ذو شأن كبير، ومكانة عظمى، وأنه سيقوم بمكافأتها إن أسدت عليه إحساناً ومعروفاً فبادرته قائلة:

(ما ذاك يا عبد الله؟!)

فقال لها وعيناه تفيضان دموعاً:

(أنا مسلم بن عقيل كذّبنى القوم وغرونى..).

فذهلت السيّدة، وقالت فى دهشة وإكبار:

(أنت مسلم بن عقيل؟).

(نعم..).

وسمحت السيّدة بخضوع وإكبار لضيفها الكبير بتشريف منزلها وقد حازت المجد والشرف بذلك، فقد آوت سليل هاشم وسفير ريحانة رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وتحملت المسؤولية من السلطة بضيافتها له.

وأدخلت السيّدة ضيفها العظيم فى بيت غير البيت الذى كانت تأوى إليه، وجاءته بالضياء والطعام، فأبى أن يأكل، فقد مزّق الأسى قلبه الشريف، وأيقن بالرزء القاصم، وتمثّلت أمانة الأحداث التى سيواجهها، وقد شغل فكره الإمام الحسين (عليه السلام) الذى كتب إليه بالتقدم إلى الكوفة وأنه سيلاقى ملاقاه.

ولم يمض قليل من الوقت حتى قدم بلال ابن السيدة طواعة، فرأى أمّه تكثّر من الدخول والخروج إلى البيت الذى فيه مسلم لتقوم بخدمته ورعايته، فأنكر عليها ذلك، وسألها عن السبب فأبت أن تخبره، فألحّ عليها، فأخبرته بالأمر بعد أن أخذت عليه الأيمان والمواثيق بالكتمان، وطارت نفس الخبيث فرحاً وسروراً، وأنفق ليله ساهراً يترقّب بفارغ الصبر انبثاق نور الفجر ليخبر السلطة بمقام مسلم عندهم ليتزلف بذلك إليها، وينال الجائزة منها، وقد تنكّر هذا الوغد لجميع الأعراف، والأخلاق العربية التى تلزم بقرى الضيف، وحمايته من كل مكروه، وكانت هذه الظاهرة سائدة حتى فى العصر الجاهلى، وقد دلّ ما فعله هذا الجلف

على انهيار القيم الأخلاقية والإنسانية ليس عنده فحسب، وإنما في أغلبية ذلك المجتمع الذي فقد جميع ما يسمو به الإنسان من القيم الكريمة.

وعلى أي حال فقد قضى سليل هاشم ليله حزيناً قلقاً مضطرباً، وقد خلص في معظم الليل إلى العبادة ما بين الصلاة وقراءة القرآن، فقد أيقن أن تلك الليلة هي آخر أيام حياته، وقد خفق في بعض الليل فرأى عمه الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) في منامه فأخبره بسرعة اللحاق به، فعند ذلك أيقن بدنو الأجل المحتوم منه.

الإفشاء بمسلم: —

ولما انبتق نور الصباح بادر بلال إلى قصر الإمارة ليخبر السلطة بمكان مسلم عنده، وكان الخبيث بحالة من الدهشة تلفت النظر، فقصد عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث وهو من الأسرة الانتهازية الخبيثة التي طلقت الشرف والمعروف ثلاثاً، فأسره بالأمر، فأمره بالسكوت لئلا يسمعه غيره فيخبر ابن زياد فينال منه الجائزة، وأسرع عبد الرحمن إلى أبيه محمد فأخبره بالأمر الخطير، وبدت سحنات الفرح والسرور على وجهه، وفطن ابن مرجانة إلى أن هناك أمراً عظيماً يخص السلطة فبادر قائلاً:

(ما قال لك عبد الرحمن؟..).

فقال وقد ملأ الفرح اهابه:

(أصلح الله الأمير البشارة العظمى...).

(ما ذاك؟ مثلك من بشر بخير...).

(إن ابني هذا يخبرني أن مسلماً في دار طوعة...).

وطار ابن زياد من الفرح والسرور فقد تمت بوارق آماله وأحلامه، فقد ظفر بسليل هاشم ليقدمه قرباناً لأمويته اللصيقة، وأخذ يمني ابن الأشعث بالمال والجاه المزيف، قائلاً له:

(قم فأتني به، ولك ما أردت من الجائزة والحظ الأوفى...).

وسال لعاب ابن الأشعث فاندفع وراء أطماعه الدنيئة لإلقاء القبض على مسلم.

الهجوم على مسلم: —

وندب ابن مرجانة لحرب مسلم، محمد بن الأشعث، وعمرو بن حريث المخزومي وضمَّ إليهما ثلثمائة رجل من فرسان الكوفة، وأقبلت تلك الوحوش الكاسرة التي لا عهد لها بالشرف والمروءة إلى حرب مسلم الذي أراد أن يحررهم من الذلّ والعبودية، وينقذهم من ظلم الأمويين وجورهم.

ولما قربت الجيوش من دار طوعة علم مسلم أنها قد أتت لحربه، فسارع إلى فرسه فأسرجه وألجمه، وصبَّ عليه درعه، وتقلد سيفه، والتفت إلى السيِّدة الكريمة طوعة فشكرها على حسن ضيافتها، وأخبرها أنه إنّما أوتى إليه من قبل ابنها الباغي اللثيم.

واقترح الجيش الدار على مسلم فشدَّ عليهم كالليث يضربهم بسيفه ففرّوا منهزمين من بين يديه يطاردهم الرعب والخوف، وبعد فترة عادوا إليه فحمل عليهم، وأخرجهم من الدار، وانطلق نحوهم فجعل يحصد رؤوسهم بسيفه، وقد أبدى من البطولات النادرة ما لم يشاهد مثله في جميع فترات التاريخ، فقد قتل منهم - فيما يقول بعض المؤرّخين - واحداً وأربعين، عدا الجرحى، وكان من قوته النادرة، وعظيم بأسه أن يأخذ الرجل منهم بيده، ويرمى به فوق البيت كأنه حجر، ومن المؤكّد أنه ليس في تاريخ الإنسانية مثل هذه البطولة، ولا مثل هذه القوة، وليس ذلك غريباً عليه، فعنّه الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) أشجع الناس، وأقواهم بأساً وأشدّهم عزيمة.

وجعل أندال أهل الكوفة يرمون مسلماً بالحجارة وقذائف النار من فوق سطوح بيوتهم، ومما لا ريب فيه أن الحرب لو كانت في البيداء لأتى عليهم مسلم، ولكنها كانت في الأزقة والشوارع، ومع ذلك فقد فشلت جيوش أندال أهل الكوفة، وعجزت عن مقاومة البطل العظيم، فقد أشاع فيه القتل والدمار، وأسرع ابن الأشعث بالطلب إلى سيِّده ابن مرجانة ليمدّه بالخيل والرجال، لأنّه لا يقوى على مقاومة هذا البطل العظيم، وبهر الطاغية، وأخذ يندد بقيادة ابن الأشعث قائلاً:

(سبحان الله!! بعثناك إلى رجل واحد تأتينا به فنلم في أصحابك هذه النلثة العظيمة...).

وثقل على ابن الأشعث هذا التقريع، فراح يشيد ببطولات ابن عقيل قائلاً:

(أتظنّ أنّك أرسلتني إلى بقّال من بقّالي الكوفة، أو جرمقاني من جرامقة الحيرة وإنّما بعثتني إلى أسد ضرغام، وسيف حسام في كفّ بطل همام من آل خير الأنام). وأمدّه ابن زياد بقوة مكثفة من الجيش، فجعل بطل الإسلام وفخر عدنان يقاتلهم أشدّ القتال وأعنفه وهو يرتجز:

أقسمت لا أقتل إلا حراً وإن رأيت الموت شيئاً نكراً

أو يخالط البارد سخناً مرّاً ردّ شعاع الشمس فاستقرا

كُلَّ امْرِئٍ يَوْمًا يَلَاتِي شَرًّا أَخَافُ أَنْ أَكْذِبَ أَوْ أُغْرَا

أما أنت يا بن عقيل فكنت سيّد الأباة والأحرار فقد رفعت لواء العزّة والكرامة، ورفعت شعار الحرية، وأما خصومك فهم العبيد الذي رضوا بالذلّ والهوان، وخضعوا للعبودية والذل، لقد أردت أن تحررهم، وتعيد لهم الحياة الحرّة الكريمة، فأبوا ذلك، وعدوا عليك يقاتلونك، وقد فقدوا بذلك إنسانيتهم، ومقومات حياتهم.

ولمّا سمع ابن الأشعث رجز مسلم الذي أقسم فيه على أن يموت ميّنة الأحرار والأشراف انبرى إليه ليخذه قائلاً:

(إنّك لا تكذب، ولا تخدع، إن القوم بنو عمّك وليسوا بقاتليك، ولا ضاريك..).

فلم يحفل مسلم بأكاذيب ابن الأشعث، وراح يقاتلهم أعنف القتال وأشدّه، وفرّوا منهزمين من بين يديه، وهو يحصد رؤوسهم، وجعلوا يرمونه بالحجارة، فأنكر عليهم مسلم ذلك وصاح بهم:

(ويلكم ما لكم ترمونني بالحجارة، كما ترمى الكفار، وأنا من أهل بيت الأبرار، ويلكم أما ترعون حقّ رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وذريته..).

إنّ هؤلاء الأجلاف قد فقدوا جميع القيم والأعراف، فلم يراعوا أيّة حرمة لرسول الله (صلى الله عليه وآله) الذي حرّهم من حياة التيه في الصحراء وأقام لهم حضارة لم تعدها الأمم والشعوب، فكان جزاؤه منهم أن عدوا على أبنائه وذريته فأوسعوهم قتلاً وتنكيلاً.

وعلى أي حال فإن جيوش ابن زياد لم تستطع مقاومة البطل العظيم وبان عليهم الانكسار، وضاق بابن الأشعث أمره، فدنا من مسلم ورفع عقيرته قائلاً:

(يا بن عقيل لا تقتل نفسك، أنت آمن، ودمك في عنقي..).

ولم يعن مسلم بأمان ابن الأشعث لعلمه أنّه من أسرة خبيثة لا تعرف أي معنى من معاني النبل والوفاء، فردّ عليه قائلاً:

(يا بن الأشعث لا أعطى بيدي أبداً، وأنا أقدر على القتال، والله لا كان ذلك أبداً..).

وحمل عليه مسلم ففرّ الجبان منهزماً يلهث كالكلب، وأخذ العطش القاسي من مسلم مأخذاً عظيماً، فجعل يقول:

(اللهمّ إن العطش قد بلغ منّي..).

وتكاثرت الجنود على مسلم، وقد استولى عليهم الرعب والخوف، وصاح بهم ابن الأشعث:

(إن هذا هو العار والفشل ان تجزعوا من رجل واحد هذا الجزع، احملوا عليه بأجمعكم حملة واحدة...).

فحمل الأوغاد اللثام على مسلم، وجعلوا يطعنونه برماحهم، ويضربونه بسيوفهم، وقد ضربه الوغد بكير بن حمران الأحمرى ضربة منكرة على شفته العليا، وأسرع السيف إلى السفلى، وضربه مسلم ضربة أردته إلى الأرض.

أسره: —

وأعيبى مسلماً نزيه الدم، وقد أثنى بالجراح، فانهارت قواه، ولم يتمكن على المقاومة، فوقع أسيراً بأيدي أولئك الأقرام، وتسابقوا إلى ابن مرجانة يحملون له البشرى بأسرهم للقائد العظيم الذى جاء ليقيم فى بلادهم حكم القرآن، ويحررهم من جور الأمويين وظلمهم، وطار ابن مرجانة فرحاً، فقد ظفر بخصمه، وتم له القضاء على الثورة وحمل مسلم أسيراً إلى عبد الأمويين وعميلهم، وقد ازدحمت الجماهير التى بايعته، وأعطته العهود والمواثيق فى الوفاء ببيعته إلا أنهم خانوا بذلك، وراحوا يقاتلونه.

وانتهى بمسلم إلى قصر الإمارة، وقد أخذ العطش منه مأخذاً عظيماً فرأى جرّة فيها ماء بارد فالتفت إلى من حوله فقال لهم: (اسقونى من هذا الماء..).

فانبرى له اللثيم الدنس عميل الأمويين مسلم بن عمرو الباهلى، فقال له:

(أتراها ما أبردها، والله لا تذوق منها قطرة حتى تذوق الحميم فى نار جهنم..).

ودلت هذه البادرة وغيرها مما صدر من هؤلاء الممسوخين على تجردهم من جميع القيم الإنسانية، ومن المؤكّد أن هذا هو السمّ البارز من أخلاق السفلة الساقطين من قتلة الأنبياء والمصلحين، وبهر مسلم من هذا الإنسان الممسوخ فقال له: (من أنت..).

فأجابه الباهلى بأنّه من خدام السلطة وأذناها قائلاً:

(أنا من عرف الحق، إذ تركته، ونصح الأمة والإمام إذ غششته، وسمع وأطاع إذ عصيته أنا مسلم بن عمرو الباهلى..).

أى حقّ عرفه هذا الجلف الجافى، وهو الأكثرية الساحقة من المجتمع الذى عاش فيه، قد غرقوا فى الباطل والمنكر... إن غاية ما يفخر به الوغد تماديه فى خدمة ابن مرجانة الذى هو أفذر مخلوق عرفه التاريخ البشرى، وردّ عليه مسلم بمنطقه الفيّاض قائلاً:

(لأمك الثكل، ما أجفاك وأفظّك، وأقسى قلبك، أنت يابن باهلة أولى بالحميم والخلود فى نار جهنم منى..).

وكان عمارة بن عقبة حاضراً فاستحى من جفوة الباهلى ولؤمه فدعا بماء بارد فصبّه فى قدح، وناوله إلى مسلم، وكلما أراد أن يشرب امتلأ القدح دماً وفعل ذلك ثلاثاً، فقال: لو كان لى الرزق المقسوم لشربته.

مع ابن مرجانة: —

وأدخل قمر عدنان على ابن مرجانة، فسلم على الحاضرين، ولم يسلم عليه، فأنكر عليه بعض صعاليك الكوفة قائلاً:
(هل تسلّم على الأمير؟..).

فصاح به البطل العظيم محتقراً له ولأميره قائلاً:

(اسكت لا أم لك، والله ليس لى بأمر فأسلم عليه..)

وتميّز الطاغية غيظاً فراح يقول:

(لا عليك سلّمت أم لم تسلّم فإنك مقتول..).

إنّ بضاعة هذا الطاغية هى القتل والدمار، وهى محالاً تخيف الأحرار أمثال مسلم ممن صنعوا تأريخ هذه الأمة، وأقاموا كيانها الحضارى والفكرى، وجرت بين مسلم وبين ابن مرجانة كثير من المحاورات أثبت فيها مسلم صلابته وقوة عزيمته، وعدم انهياره أمام الطاغية، وأثبت بشجاعته أنّه من أفاذذ التاريخ.

إلى الرفيق الأعلى: —

والتف العتلّ الزنيم ابن مرجانة إلى بكير بن حرمان الذى ضربه مسلم فقال له: خذ مسلماً، واصعد به إلى أعلى القصر، واضرب عنقه بيدك ليكون ذلك أشفى لصدرك، واستقبل مسلم الموت بثغر باسم، فقد بقى رابط الجأش، قوى العزيمة، مطمئن النفس، فصعد به إلى أعلى القصر، وهو يسبح الله، ويقدّسه، ويدعو على السفكة المجرمين وأشرف به الجلاذ على موضع الحدائين، فضرب عنقه، ورمى بجسده ورأسه إلى الأرض، وهكذا انتهت حياة هذا البطل العظيم الذى استشهد دفاعاً عن حقوق المظلومين، والمضطهدين، ودفاعاً عن كرامة الإنسان، وقضاياه المصيرية، وهو أوّل شهيد من الأسرة النبوية يقتل علناً أمام المسلمين، ولم يهبوا لإتقاده والدفاع عنه.

ص: ٧٤

إعدام هانئ: —

وأمر سليل الغدر والخيانة بعد قتل مسلم، بإعدام الزعيم الكبير، والعضو البارز فى الثورة هانئ بن عروة، فأخرج من السجن، وهو يصبح أمام أسرته التى هى كالحشرات قائلًا:

(وامذ حجاه..).

(واعشيرتاه..).

ولو كان عند أسرته صباية من الغيرة والحمية لهبت لإنتقاذ زعيمها العظيم الذى كان لها كالأب، والذى قدّم لها جميع الخدمات، ولكنها كبقية قبائل الكوفة قد طلّقت المعروف ثلاثًا، ولا عهد لها بالشرف والكرامة.

وجيء بهانئ إلى ساحة يباع فيها الأغنام، فنفّذ الجلادون فيه حكم الإعدام، فهوى إلى الأرض يتخبّط بدم الشهادة.. لقد استشهد هانئ دون مبادئه وعقيدته، وقد انطوت بشهادته أروع صفحة من صفحات البطولة والجهاد فى الإسلام.

السحل فى الشوارع: —

وقام عملاء ابن زياد وعبيده من الانتهازيين والغوغاء فسحلوا جثة مسلم وهانئ فى الشوارع والأزقة، وذلك لإخافة العامة وشيوع الإرهاب بين الناس، والاستهانة بشيعة مسلم وأنصاره، وقد انتهت بذلك الثورة العملاقة التى كانت تهدف إلى إشاعة العدل والأمن والرخاء بين الناس، وقد خلد الكوفيون بعد فشل الثورة إلى الذلّ والعبودية وأمعن الطاغية فى ظلمهم فأعلن الأحكام العرفية فى بلادهم، وأخذ يقتل على الظنّة والتهمة، وبأخذ البرىء بالمدنّب، كما فعل أبوه زياد من قبل، وقد ساقهم كالأغنام لأفطع جريمة عرفها التاريخ البشرى وهى حربهم لحفيد النبى (صلى الله عليه وآله) الإمام الحسين (عليه السلام).

الهوامش

١ - حياة الإمام الحسين ٢: ٢٥٥.

ص: ٧٥

إلى أرض الشهادة

وغادر الإمام الحسين (عليه السلام) مكة، ولم يمكث فيها، فقد علم أن الطاغية يزيد قد دسّ عصابة من الإرهابيين لاغتياله، وإن كان متعلقاً بأستار الكعبة، فخاف أن يراق دمّه في البيت الحرام، وفي الشهر الحرام، وبالإضافة إلى ذلك فإن سفيره مسلم بن عقيل قد كتب إليه يحثّه على القدوم إلى الكوفة، وإن أهلها يترقبون قدومه، ويفدونهم بأرواحهم ودمائهم، ويقدمون له الدعم الكامل لتشكيل حكومة علوية في بلادهم.

وسار الإمام مع عائلته تحفّ بها الكوكبة المشرقة من شباب أهل البيت (عليهم السلام) الذين يمثلون القوة والعزم والإباء، وعلى رأسهم سيّدنا أبو الفضل (عليه السلام) فكانت رايته ترفرف على رأس أخيه أبي الأحرار من مكة المكرمة إلى أرض الشهادة والفداء كربلاء، وكان يراقب بدقة حركة القافلة وسيرها خوفاً على عيال أخيه وأطفاله من أن يصيبهم عناء أو أذى من وعورة الطريق، وقد تكفل جميع شؤونهم وما يحتاجون إليه، وقد وجدوا في رعايته وحنانه من البرّ ما يفوق حدّ الوصف.

وواصل الإمام سيرته الخالدة، وقد طافت به هواجس مريرة، فقد أيقن أنه سيلقى مصرعه، ومصارع أهل بيته على أيدي هؤلاء الذين كاتبوه بالقدوم إلى مصرهم، وقد تشرّف بمقابلته في الطريق الشاعر الكبير الفرزدق همام بن غالب، فسلم عليه وحيّاه، وقال له:

(بأبي أنت وأمّي يا بن رسول الله (صلى الله عليه وآله) ما أعجلك عن الحج؟).

فأحاطه الإمام علماً بما عزم عليه السلطة من اغتياله قائلاً:

(لو لم أعجل لأخذت..).

وسارع الإمام قائلاً:

(من أين أقبلت؟..)

(من الكوفة..).

(بيّن لي خبر الناس..)

كشف الفرزدق للإمام بوعى وصدق الحالة الراهنة في الكوفة، وأنها لا تبشّر بخير، ولا تدعو إلى التفاؤل قائلاً:

(على الخبير سقطت، قلوب الناس معك، وسيوفهم مع بني أمية، والقضاء ينزل من السماء، والله يفعل ما يشاء... وربنا كل يوم هو في شأن..).

واستصوب الإمام حديث الفرزدق، وأخبره عن عزمه الجبار وإرادته الصلبة، وأنه ماضٍ قدماً في جهاده، ودبّه عن حرمة الإسلام، فإن نال ما يرومه فذاك، وإلا فالشهادة في سبيل الله قاتلاً له:

(صدقت لله الأمر من قبل، ومن بعد، يفعل الله ما يشاء، وكل يوم ربنا في شأن، إن نزل القضاء بما نحبّ فنحمد الله على نعمائه، وهو المستعان على أداء الشكر وإن حال القضاء دون الرجاء فلم يتعدّ من كان الحقّ نبيته، والتقوى سريرته) وأنشأ الإمام هذه الأبيات:

لئن كانت الدنيا تعدّ نفيسة فدار ثواب الله أعلى وأنبل

وإن كانت الأبدان للموت أنشئت فقتل امرئ بالسيف في الله أفضل

وإن كانت الأرزاق شيئاً مقدرأ فقلة سعى المرء في الرزق أجمل

وإن كانت الأموال للترك جمعها فما بال مستروك به المرء ييخل

ودلّ هذا الشعر على زهده في الدنيا، ورغبته الملحة في لقاء الله تعالى، وأنه مصمّم كأشدّ ما يكون التصميم على الجهاد، والشهادة في سبيل الله.

إنّ التقاء الإمام مع الفرزدق كشف عن خنوع الناس، وعدم اندفاعهم لنصرة الحقّ فالفرزدق الذي كان يملك وعياً اجتماعياً، ووعياً ثقافياً متميزاً رأى ربحانة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهو ماضٍ في طريقه إلى الشهادة قد تظافرت قوى الباطل على حربه فلم يندفع إلى نصرته، والاتحاق بموكبه، واختار الحياة على الشهادة، فاذا كان هذا حال الفرزدق فكيف بغيره من جهال الناس وسوادهم.

وصول النبا بمقتل مسلم: —

وسارت قافلة أبي بالأحرار تطوى البيداء لا تلوى على شيء حتى انتهت إلى (زرود) وإذا برجل قد أقبل من جهة الكوفة، فلما رأى الإمام الحسين (عليه السلام) عدل عن الطريق وقد وقف الإمام يريد مسأله فلما رآه قد مال عنه واصل سيره، وكان مع الإمام عبد الله بن سليمان، والمنذر بن المشمعل الأسديان فسارعا نحو الرجل حينما عرفا رغبة الإمام في سؤاله، فأدركاه، وسألاه عن خبر الكوفة فقال لهما: إنّه لم يخرج حتى قتل مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة، ورأهما يجران بأرجلهما في الأسواق، فودّعا وأقبلا مسرعين حتى التحقا بالإمام، فلما نزل الثعلبية قالوا له:

(رحمك الله إن عندنا أخباراً إن شئت حدثناك بها علانية، وإن شئت سرّاً).

ونظر الإمام إلى أصحابه الممجدين فقال:

(ما دون هؤلاء سرّ).

(أرأيت الراكب الذى استقبلته عشاء أمس؟..)

(نعم، وأردت مسألته..).

(والله استبرأنا لك خبره، وهو أمرؤ منا ذو رأى، وصدق، وعقل، وانه حدثنا أنه لم يخرج من الكوفة حتى قتل مسلم، وهانئ وراهما يجرآن فى الأسواق بأرجلهما..).

وتصدّعت قلوب العلويين وشيعتهم من هذا النبأ المفجع، وانفجروا بالبكاء واللوعة، حتى ارتجّ الموضع بالبكاء، وسالت الدموع كالسيل، وشاركهم السيّدات من أهل البيت بالبكاء، وقد استبان لهم غدر أهل الكوفة ونكثهم لبيعة الإمام، وأنّهم سيلاقون المصير الذى لاقاه مسلم، والتفتت إلى بنى عقيل فقال لهم:

(ما ترون فقد قتل مسلم؟..).

ووثبت الفتية كالأسود، وهى تعلن استهانتها بالموت، وسخريتها من الحياة، مصمّمة على المنهج الذى سار عليه مسلم قائلين:

(لا والله لا نرجع حتى نصيب ثأرنا أو نذوق ما ذاق مسلم..).

راح أبو الأحرار يقول بمقالتهم:

(لا خير فى العيش بعد هؤلاء..).

وقال متمثلاً:

(سأمضى وما بالموت عار على الفتى إذا ما نوى حقاً وجاهد مسلماً

فإن متّ لم أندم وإن عشت لم ألم كفى بك عاراً أن تذلل وترغما)

لقد مضيت - يا أبا الأحرار - قدماً إلى الموت، بعزم وتصميم، وأنت مرفوع الرأس، ناصع الجبين فى سبيل كرامتك، ولم تخضع، ولم تلن لأولئك الأقرام الذين غرقوا فى الرذائل والموبقات.

النبأ المفجع بشهادة عبد الله:

وسار موكب الإمام لا يلقى على شيء حتى انتهى إلى زبالته، فوفاه النبأ الفطيع بشهادة عبد الله بن يقطر الذي أوفده للقاء مسلم بن عقيل، فقد ألقى الشرطة القبض عليه، وبعثته مخفوراً إلى ابن مرجانة، فلما مثل عنده صاح به الخبيث الدنس:

(اصعد المنبر، والعن الكذاب - يعنى الإمام الحسين - ابن الكذاب، حتى أرى رأيي فيك..).

وظنَّ ابن مرجانة أنَّه على غرار شرطته، ومن سنخ جلاذيه الذين باعوا ضمائرهم عليه، وما درى أنَّه من أفذاذ الأحرار الذين تربوا في مدرسة أهل البيت (عليهم السلام)، وسجلوا الفخر والشرف لهذه الأمة، واعتلى البطل العظيم أعواد المنبر، ورفع صوته صوت الحقَّ الهادر قاتلاً:

(أيها الناس أنا رسول الحسين بن فاطمة، لتنصروه وتؤازروه على ابن مرجانة الدعيَّ ابن الدعيَّ..).

واسترسل في خطابه الثورى، وقد دعا فيه إلى نصره ربحانة رسول الله (صلى الله عليه وآله) والذبَّ عنه، ومناهضة الحكم الأموى الذى عمد إلى إذلال الإنسان المسلم، وسلب حريته وإرادته، وانتفخت أوداج ابن مرجانة وورم أنفه، فأمر بالقاء هذا العملاق من أعلى القصر، فأخذته الشرطة، ورمته من أعلى القصر فتكسرت عظامه، وبقي به رمق من الحياة، فأسرع إليه الخبيث عبد الملك اللخمي فذبحه ليتقرب إلى سيده ابن مرجانة.

ولما علم أبو الأحرار بمصرع عبد الله شقَّ عليه ذلك، ويئس من الحياة، وعلم أنَّه يسير نحو الموت، وأمر بجمع أصحابه، والذين اتبعوه طلباً للعافية لا للحق، ليعلمهم بما آل إليه أمره من تخاذل الناس عنه، وانصرافهم إلى بنى أمية قاتلاً:

(أما بعد: فقد خذلنا شيعتنا فمن أحبَّ منكم الانصراف فليصرف ليس عليه منّا ذمام..).

وتفرَّق ذوو الأطماع الذين اتبعوه من أجل الغنيمة والظفر ببعض مناصب الدولة، وخلص إليه الصفوة الكريمة من أصحابه الممجدين الذين اتبعوه على بصيرة من أمرهم وليست عندهم أية أطماع.

لقد صرح الإمام أصحابه بالواقع فى تلك المرحلة الحاسمة، فأعلمهم أنه ماض إلى الشهادة لا إلى الملك والسلطان، وأن من يلتحق به سيفوز برضا الله، ولو كان الإمام من عشاق السلطة لما أدلى بذلك، وكنتم الأمر لأنَّه فى أمسِّ الحاجة إلى الناصر والمحامى عنه.

لقد كان الإمام (عليه السلام) ينصح أصحابه وأهل بيته بالتخلى عنه فى كل موقف والسبب فى ذلك أن يكونوا على بصيره من أمرهم، ولا يدعى أحد منهم أنه كان على غير علم بالأمر.

الالتقاء بالحر: —

وسار موكب الإمام يطوى البيداء حتى انتهى إلى (شراف) وفيها عين ماء فأمر الإمام فتيانه بالاستقاء والإكثار منها، ففعلوا ذلك، وسارت القافلة، فانبهر بعض أصحاب الإمام بالتكبير، فاستغرب الإمام منه، وقال له:

(لم كبرت؟...)

(رأيت النخل...).

وأنكر عليه رجل من أصحاب الإمام ممن عرف الطريق، فقال له:

(ليس ها هنا نخل، ولكنها أسنة الرماح، وآذان الخيل)..

وتأملها الإمام، فطفق يقول: وأنا أرى ذلك - أى أسنة الرماح وآذان الخيل - وعرف الإمام أنها طلائع الجيش الأموي جاءت لحره فقال لأصحابه:

(أما لنا من ملجأ نلجأ إليه، فنجعله وراء ظهورنا، ونستقبل القوم من وجه واحد..).

وكان بعض أصحابه عارفاً بسنن الطريق فقال له:

(بلى هذا ذو حسم (١) إلى جنبك، تميل إليه عن يسارك، فإن سبقت إليه فهو كما تريد..).

ومال موكب الإمام إليه، فلم يبعد كثيراً حتى أدركه جيش مكنف بقيادة الحرّ بن يزيد الرياحي، قد عهد إليه ابن مرجانة أن يجوب في صحراء الجزيرة للتفتيش عن الإمام، وإلقاء القبض عليه، وكان عدد ذلك الجيش فيما يقول المؤرخون زهاء ألف فارس، ووقفوا قبال الإمام في وقت الظهر، وقد أشرفوا على الهلاك من شدة الظمّ، فرقّ عليهم الإمام، فأمر أصحابه أن يسقوهم الماء، ويرشفوا خيولهم، وسارع أصحابه فسقوا الجيش المعادي لهم عن آخره، ثم انعطفوا إلى الخيل فجعلوا يملأون القصاص والطساس فإذا عبّ الفرس فيها ثلاثاً، أو أربعاً، أو خمساً، عزلت، وسقى الآخر حتى سقوها عن آخرها.

لقد تكرّم الإمام (عليه السلام) على أولئك الوحوش الأندال الذين جاءوا لحره فأنتدّمهم من الظمّ القاتل، ولم تهزّهم هذه الأريحية وهذا النبل، فقابلوه بالعكس، فمنعوا الماء عنه، وعن أطفاله حتى تفتّت قلوبهم من الظمّ.

خطاب الإمام في الجيش: —

وخطب الإمام (عليه السلام) خطاباً بليغاً في قطعات ذلك الجيش، فأوضح لهم أنه لم يأتهم محارباً، وإنما جاءهم محرراً ومنقذاً لهم من جور الأمويين وظلمهم، وقد توافدت عليه وفودهم وكتبهم تحته بالقدوم لمصرهم ليقيم دولة القرآن والإسلام، وهذه فقرات من خطابه الشريف:

(أيها الناس، إنها معذرة إلى الله عز وجل، وإليكم، إنني لم آتكم حتى أتتني كتبكم وقدمت بها عليّ رسلكم أن أقدم علينا فإنه ليس لنا إمام، ولعل الله أن يجمعنا بك على الهدى، فإن كنتم على ذلك فقد جئتمكم، فاعطوني ما أطمئن به من عهودكم ومواثيقكم، وإن كنتم لمقدمي كارهين انصرفت عنكم إلى المكان الذي جئت منه إليكم..).

وأحجموا عن الجواب لأن أكثرهم ممن كاتبوه وبايعوه على يد سفيره العظيم مسلم بن عقيل.

وحضر وقت صلاة الظهر فأمر الإمام مؤذنه الحجاج بن مسروق أن يؤذن ويقيم للصلاة، وبعد فراغه منها التفت الإمام إلى الحرّ فقال له:

(أتريد أن تصلى بأصحابك؟..).

فقال الحرّ بأدب:

(بلى نصلى بصلاتك..).

وأتى الجيش بريحانة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وبعد الفراغ من الصلاة انصرفوا إلى أخبيتهم، ولما حضر وقت صلاة العصر جاء الحرّ مع قومه فاقتدوا بالإمام في الصلاة وبعد الانتهاء منها خطب الإمام الحسين (عليه السلام) خطاباً رائعاً، فقد قال بعد حمد الله والثناء عليه:

(أيها الناس: إنكم إن تتقوا الله، وتعرفوا الحق لأهله يكن أرضى الله، ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر من هؤلاء المدّعين ما ليس لهم، والسائرين فيكم بالجور والعدوان، فإن أنتم كرهتمونا، وجهلتم حقنا، وكان رأيكم الآن على غير ما أتتني به كتبكم انصرفت عنكم..).

لقد دعاهم إلى تقوى الله، ومعرفة أهل الحقّ، ودعاة العدل فإن في ذلك رضا لله ونجاة لأنفسهم، كما دعاهم إلى مناصرة أهل البيت (عليهم السلام) رواد الشرف والفضيلة، ودعاة العدل الاجتماعي في الإسلام، وهم أولى وأحقّ بولاية أمور المسلمين من بنى أمية الذين حكموا فيهم بغير ما أنزل الله، وإذا لم يستجيبوا لذلك، وتبدلت نيّاتهم فإنه ينصرف عنهم إلى المكان الذي جاء منه.

وانبرى إليه الحرّ، وكان لا يعلم بشأن الكتب التي بعثتها جماهير أهل الكوفة إلى الإمام فقال له:

(ما هذه الكتب التي تذكرها؟..).

فأمر الإمام عقبة بن سمران بإحضارها فأخرج خرجين مملوءين صحفاً فنشرها بين يدي الحرّ، فبهر منها، وجعل يتأمل فيها، وقال للإمام:

(لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك..).

ورام الإمام أن ينصرف إلى المكان الذي جاء منه فمنعه الحرّ، وقال له: (أن لا أفارقك إذا لقيتك حتى أقدمك الكوفة على ابن زياد..).

ولذعت الإمام هذه الكلمات القاسية، فثار في وجه الحرّ، وصاح به (الموت أدنى إليك من ذلك..).

وأمر الإمام أصحابه بالركوب فلما استنوا على رواحلهم أمرهم بالتوجه إلى يثرب فحال الحرّ بينهم وبين ذلك، فصاح به الحسين:

(ثكلتك أمك ما تريد منا؟..).

وأطرق الحرّ برأسه إلى الأرض، وتأمّل، ثم رفع رأسه إلى الإمام وقال له بأدب:

(ولكن والله مالي إلى ذكر أمك من سبيل إلا بأحسن ما يقدر عليه..).

وسكن غضب الإمام، وأعاد عليه القول:

(ما تريد منا؟..).

(أريد أن أنطلق بك إلى ابن زياد..).

(والله لا أتبعك..).

(إذن والله لا أدعك..).

وكاد الوضع أن ينفجر باندلاع الحرب إلا أن الحرّ تاب إلى رشده، فقال للإمام:

(إنني لم أوامر بقتالك، وإنما أمرت أن لا أفارقك حتى أقدمك الكوفة، فإذا أبيت فخذ طريقاً لا يدخلك الكوفة، ولا يردك إلى المدينة حتى أكتب إلى ابن زياد، فلعلّ الله أن يأتي بأمر يرزقني فيه العافية من أن أبتلى بأمر).

واتفقا على هذا الأمر فتياسر الإمام عن طريق العذيب والقادسية، وأخذت قافلة الإمام تطوى البيداء، وكان الحرّ مع جيشه يتابع الإمام عن كثب ويراقبه كأشدّ ما تكون المراقبة.

خطاب الإمام: —

وانتهى موكب الإمام إلى (البيضة) فألقى الإمام خطاباً رائعاً على الحرّ وأصحابه أعلن فيه عن دوافع ثورته ودعاهم إلى مناصرته، وكان من بنود هذا الخطاب هذه الفقرات:

(أيها الناس: إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله (صلى الله عليه وآله) يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغيّر ما عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أن يدخله مدخله).. (إلا أن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفىء، وأحلّوا حرام الله، وحرّموا حلاله، وأنا أحقّ ممن غيّر، وقد أتتني كتبكم، وقدمت على رسلكم ببيعتمكم أنكم لا تسلموني، ولا تخذلوني، فإن أقمتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم، وأنا الحسين بن علي، وابن فاطمة بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله) نفسى مع أنفسكم، وأهلى مع أهليكم، ولكن فى أسوة، وإن لم تفعلوا، ونقضتم عهدكم وخلعتكم بيعتى، فلعمري ما هى لكم بنكر، لقد فعلتموها بأبى وأخى، وابن عمى مسلم فالمغرور من اغترّ بكم، فحظكم أخطأتم، ونصيبكم ضيّعتم، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه، وسيغنى الله عنكم..).

وأعلن أبو الأحرار فى هذا الخطاب الرائع دوافع ثورته المقدّسة على حكومة يزيد، وإنها لم تكن من أجل المطامع والأغراض الشخصية الخاصة، وإنما كانت استجابة للواجب الدينى الذى لا يقرب بأى حال من الأحوال حكومة السلطان الجائر الذى يستحلّ حرّات الله، وينكث عهده، ويخالف سنة رسوله، وإن من لم يندفع إلى ساحات الجهاد لمناهضته فإنه يكون شريكاً له فى ظلمه وجوره، كما ندّد (عليه السلام) بالأمويين وقد نعتهم بأنهم قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، واستأثروا بالفىء، وعطلوا حدود الله، والإمام (عليه السلام) أحقّ وأولى من غيره بتغيير الأوضاع الراهنة وإعادة الحياة الإسلامية المشرقة إلى مجراها الطبيعى بين المسلمين، وأعرب لهم أنه إذا تقلّد شؤون الحكم فسيجعل نفسه مع أنفسهم، وأهله مع أهليهم من دون أن يكون له أى امتياز عليهم، وقد وضع الإمام بهذا الخطاب النقاط على الحروف، وفتح لهم منافذ النور لو كانوا يبصرون، ولما أنهى الإمام خطابه قام إليه الحرّ فقال له:

(إنى أذكرك الله فى نفسك، فأنى أشهد لئن قاتلت لتقتلن...).

وردّ عليه أبو الشهداء قائلاً:

(أبالموت تخوفني، وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلونني، وما أدري ما أقول لك، ولكنني أقول كما قال أخو الأوس لابن عمه، وهو يريد نصره رسول الله (صلى الله عليه وآله): أين تذهب، فإنك مقتول، فقال له:

سأمضى وما بالموت عار على الفتى إذا ما نوى خيراً وجاهداً مسلماً
وواسى الرجال الصالحين بنفسه وخالف مثبوراً وفارق مجرماً
فإن عشت لم أندم وإن متّ لم ألم كفى بك ذلاً أن تعييش وترغماً

ولما سمع الحرّ ذلك تنحّى عنه، وعرف أنّه مصمّم على الموت والتضحية لإنقاذ المسلمين من ويلات الأمويين وجورهم.

رسالة ابن مرجانة إلى الحرّ: —

وتابعت قافلة الإمام سيرها في البيداء، وهي تارة تتيامن، وأخرى تتياسر وجنود الحرّ يذودون الركب عن البادية، ويدفعونه تجاه الكوفة، والركب يمتنع عليهم، وبينما هم كذلك، وإذا براكب يجدّ في سيره، فلبثوا هنيئة ينتظرونه فإذا به رسول من ابن زياد إلى الحرّ، فسلم الخبيث على الحرّ، ولم يسلم على ريحانة رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وناول الحرّ رسالة من ابن مرجانة جاء فيها:

(أما بعد: فجعجع بالحسين حين يبلغك كتابي، ويقدم عليك رسولي، فلا تنزله إلا بالعراء في غير حصن، ولا على غير ماء، وقد أمرت رسولي أن يلزمك فلا يفارقك حتى يأتييني بإنفاذك أمرى والسلام..).

وأعرض ابن مرجانة عما عهد به إلى الحر من إلقاء القبض على الإمام، وإرساله مخفوراً إلى الكوفة، ومن المحتمل أنّه خاف من تطوّر الأحداث، وانقلاب الأوضاع إليه إن وصل الإمام إلى الكوفة، فرأى التحجير في الصحراء بعيداً عن المدن أولى بالوصول إلى أهدافه.

وقرأ الحرّ كتاب ابن مرجانة على الإمام، وكان يريد أن يستأنف سيره ليحطّ رحله صوب قرية أو ماء، فامتنع عليه الحرّ لأنّ نظرات الرقيب الوافد من ابن زياد كانت تتابعه، وكان يسجّل عليه كل بادرة يخالف أوامر سيّده ابن مرجانة، وأشار زهير بن القين وهو من أعلام أنصار الإمام ومن خلّص أصحابه عليه أن يبادر إلى قتال الحرّ، فامتنع عليه الإمام، وقال: ما كنت أبدأهم بقتال.

فى كربلاء: —

وكان ركب الإمام فى كربلاء فأصرّ عليه الحرّ أن ينزل فيها، ولم يجد الإمام بدءاً من النزول فالتفت إلى أصحابه قائلاً:

(ما اسم هذا المكان؟..)

(كربلاء..)

وفاضت عيناه بالدموع، وراح يقول:

(اللهمّ إنى أعوذ بك من الكرب والبلاء..)

وأيقن الإمام بنزول الرزء القاصم، فالتفت إلى أصحابه ينعى إليهم نفسه ونفوسهم قائلاً:

(هذا موضع كرب وبلاء، ها هنا مناخ ركابنا، ومحطّ رحالتنا، وسفك دماتنا..).

وسارع أبو الفضل العباس مع الفتية من أهل البيت (عليهم السلام)، وسائر الأصحاب الممجدين إلى نصب الخيام لعقائل الوحي، ومخدرات النبوة، وقد خيّم عليهنّ الرعب، وأيقن بمواجهة الأحداث الرهيبة على صعيد هذه الأرض.

ورفع الإمام الممتحن يديه بالدعاء إلى الله شاكياً إليه ما ألمّ به من عظيم المحن والخطوب قائلاً:

(اللهمّ.. إنا عترة نبيك محمد (صلى الله عليه وآله) قد أخرجنا، وطردنا، وأزعجنا عن حرم جدّنا وتعدّدت بنو أميّة علينا، اللهمّ فخذنا لنا بحقنا، وانصرنا على القوم الظالمين..).

وأقبل الإمام على أهل بيته وأصحابه، فقال لهم:

(الناس عبيد الدنيا، والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درت معائشهم فإذا مُحصوا بالبلاء قلّ الديّانون..).

يالها من كلمات ذهبية حكّت واقع الناس واتجاهاتهم فى جميع مراحل التّاريخ فهم عبيد الدنيا، وعبيد السلطة، وأما الدين والمثل العليا فلا ظلّ لها فى أعماق نفوسهم، فإذا دهمتهم عاصفة أو بلاء هربوا من الدين، ولم يثبت عليه إلا من امتحن الله قلبه للإيمان أمثال الصفوة العظيمة من أهل بيت الحسين وأصحابه.

ثم حمد الإمام (عليه السلام) الله وأثنى عليه، والتفت إلى أصحابه قائلاً:

ص: ٨٥

أما بعد: فقد نزل بنا ما قد ترون؛ وإن الدنيا قد تغيّرت، وتكثرت، وأدبر معروفها ولم يبق منها إلا صباية كصباية الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل(٢) ألا ترون إلى الحقّ لا يعمل به، وإلى الباطل لا يتناهى عنه ليرغب المؤمن في لقاء الله، فيأني لا أرى الموت إلا سعادة، والحياة مع الظالمين إلا برماً..(٣).

لقد أعلن أبو الأحرار بهذا الخطاب عمّا حلّ به من المحن والبلوى، وأعلم أهل بيته وأصحابه عن عزمه الجبار وإرادته الصلبة في مقارعة الباطل، وإقامة الحق الذي آمن به في جميع أدوار حياته... وقد وجه إليهم هذا الخطاب ليكونوا على بينة من أمرهم، ويشاركوه في تحمّل المسؤولية، وقد هبوا جميعاً وهم يسجلون في تاريخ البشرية أروع الأمثلة للتضحية والفداء من أجل إقامة دولة الإسلام، وكان أول من تكلم منهم زهير بن القين وهو من أفاذا الأحرار فقال له:

(سمعنا يا بن رسول الله (صلى الله عليه وآله) مقاتلك، ولو كانت الدنيا لنا باقية وكنا فيها مخلصين لآثرنا النهوض معك على الإقامة فيها..).

ومثلت هذه الكلمات شرف الإنسان الذي لا يضاهيه شرف، وقد حكى ما في نفوس أصحابه الأحرار من الولاء لريحانة رسول الله (صلى الله عليه وآله) والتفاني في سبيله، وانبرى بطل آخر من أصحاب الإمام وهو برير الذي وهب حياته لله، فقال له:

يا بن رسول الله (صلى الله عليه وآله) لقد منّ الله بك علينا أن نقاتل بين يديك، وتقطع فيك أعضاؤنا، ثم يكون جدك شفيعنا يوم القيامة..).

ولا يوجد في البشرية مثل هذا الإيمان الخالص، لقد أيقن أن نصرته لابن رسول الله (صلى الله عليه وآله) فضل ومنة من الله عليه ليفوز بشفاعته جدّه الأعظم يوم يلقى الله.

وانبرى بطل آخر من أصحاب الإمام، وهو نافع فأعلن نفس المصير الذي اختاره الأبطال من أصحابه، فقال:

أنت تعلم أن جدك رسول الله (صلى الله عليه وآله) لم يقدر أن يشرب الناس محبته، ولا أن يرجعوا إلى أمره ما أحبّ، وقد كان منهم منافقون يعدونه بالنصر، ويضمرون له الغدر، يلقونه بأحلى من العسل، ويخلفونه بأمر من الحنظل، حتى قبضه الله إليه، وأن أباك عليّاً كان في مثل ذلك، فقوم قد أجمعوا على نصره، وقاتلوا معه الناكثين والقاسطين والمارقين، حتى أتاه أجله فمضى إلى رحمة الله ورضوانه وأنت اليوم عندنا في مثل تلك الحالة، فمن نكث عهده، وخلع بيعته فلن يضرّ إلا نفسه، فسر بنا راشداً معافى، مشرقاً، إن شئت أو مغرباً، فوالله ما أشفقنا من قدر الله، ولا كرهنا لقاء ربنا، وإنا على نياتنا وبصائرنا، نوالى من والاك ونعادي من عاداك..(٤).

دلّ هذا الخطاب الرائع على وعى نافع، وإدراكه العميق للأحداث ودراسته لأبعادها فقد أعرب أن الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) بما يملك من طاقات روحية لم يستطع أن يجمع الناس على محبته، ويخضعهم إلى الإيمان برسالته، فقد كان هناك طائفة من المنافقين انتشروا في صفوف المسلمين، وهم يضمرون الكفر في دخائل نفوسهم ويظهرون الإسلام على ألسنتهم، وكانوا

يبغون للنبيّ (صلى الله عليه وآله) الغوائل ويكيدون له فى غلس الليل وفى وضح النهار، وكذلك حال وصيّيه وباب مدينة علمه الإمام أمير المؤمنين من بعده فقد ابتلى بمثل ما ابتلى به النبيّ (صلى الله عليه وآله) فقد آمن به قوم وحاربه قوم آخرون، وحال الإمام الحسين (عليه السلام) كحال جدّه وأبيه، فقد آمنت به قلة مؤمنة من أصحابه، وزحفت لحره الجموع الهائلة من الذين نزع الله الإيمان من قلوبهم.

وعلى أىّ حال فقد تكلم أكثر أصحاب الإمام بمثل كلام نافع وهم يعلنون له الإخلاص والتفانى، وقد شكرهم الإمام، وأثنى عليهم، ودعا لهم بالمغفرة والرضوان.

خروج الجيوش لحرب الإمام الحسين:

وتمت أحلام ابن مرجانة، وتحققت آماله حينما استولت طليعة جيوشه على ريحانة رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وأخذ يطيل النظر فيمن ينتدبه لحربه، ويرشحه لقيادة قواته المسلّحة، وتصفح الأرجاس من أذنايه وعملائه، فلم ير رجساً مثل عمر بن سعد يقدم على اقرار هذه الجريمة فقد درس نفسيته، ووقف على ميوله واتجاهاته التى منها الخنوع والمروق من الدين، وعدم المبالاة بارتكاب الآثام والجرائم، والتهالك على المادة وغير ذلك من نزعاته الشريرة.

وعرض ابن مرجانة سليل الأدعياء على ابن سعد القيام بحرب سبط رسول الله (صلى الله عليه وآله) فامتنع عن إجابته، فهدده بعزله عن ولاية الرى فلم يطق صبراً عنها، فقد سال لها لعابه فأجابه إلى ذلك، وزحف إلى كربلاء، ومعه أربعة آلاف فارس، وهو يعلم أنّه خرج لقتال ذريّة رسول الله (صلى الله عليه وآله) الذين هم خيرة من فى الأرض، وانتهى الجيش إلى كربلاء فانضمّ إلى الجيش الرابض هناك بقيادة الحرّ بن يزيد الرياحي.

خطبة ابن زياد: —

وأمر الطاغية بجمع الناس فى رحاب المسجد الأعظم فهرعوا كالأغنام خوفاً من ابن مرجانة، وقد امتلأ الجامع منهم فقام خطيباً فقال:

(أيها الناس: إنكم قد بلوتم آل أبى سفيان فوجدتموهم كما تحبون، وهذا أمير المؤمنين يزيد، قد عرفتموه حسن السيرة، محمود الطريقة، محسناً إلى الرعية، يعطى العطاء فى حقّه، وقد آمنت السبل على عهده، وكذلك كان أبوه معاوية فى عصره، وهذا ابنه يزيد يكرم العباد، ويغنيهم بالأموال، وقد زادكم فى أرزاقكم مائة مائة، وأمرنى أن أقرؤها عليكم، وأخرجكم إلى حرب عدوّ الحسين فاسمعوا له وأطيعوا...)(٥).

لقد خاطبهم باللغة التي يفهمونها، ويتهاكون عليها، ويقدمون أرواحهم بسخاء في سبيلها، وهي المادة التي هاموا بحبها، وقد أجابوه إلى ما أراد فرجهم لاقتراف أفضع جريمة في تاريخ البشرية.

وأسند القيادة في بعض قطعات جيشه إلى كل من الحصين بن نمير، وحجار بن أبجر، وشمر بن ذى الجوشن، وشبث بن ربعي، وغيرهم، وقد زحفوا بمن معهم إلى كربلاء لمساعدة ابن سعد.

احتلال الفرات: _____

وقامت العصابة المجرمة التي تحمل شرور أهل الأرض وخبثهم باحتلال الفرات، ولم تبق شريعة أو منفذ إلا وقد وضع عليها الحرس، وقد صدرت إليهم الأوامر المشددة من قبل القيادة العامة بالحدز واليقظة كي لا تصل قطرة من الماء إلى عترة رسول الله (صلى الله عليه وآله) الذين هم من خيرة ما خلق الله.

ويقول المؤرخون: حيل بين الحسين والماء قبل قتله بثلاثة أيام (٦) وكان ذلك من أعظم ما عاناه الإمام من المحن والخطوب، فكان يسمع صراخ أطفاله، وهم ينادون: العطش، العطش، وذاب قلب الإمام حناناً ورحمة لذلك المشهد الرهيب، فقد ذبلت شفاه أطفاله، وذوى عودهم، وجفّ لبن المراضع، وصوّر أنور الجندي هذا المنظر المفجع بقوله:

وذئاب الشرور تنعم بالماء وأهل النبيّ من غير ماء
يا لظلم الأقدار يظماً قلب الليث والليث موثق الأعضاء
وصغار الحسين يبكون في الصحراء يا ربّ أيّـن غوث القضاء

لقد نزع الله الرحمة من قلوبهم، فتنكروا لإنسانيتهم، وتنكروا لجميع القيم والأعراف، فان جميع الشرائع والمذاهب لا تبيح منع الماء عن النساء والأطفال فالناس فيه جميعاً شركاء، وقد أكدت ذلك الشريعة الإسلامية، واعتبرته حقاً طبيعياً لكل إنسان، ولكن الجيش الأموي لم يحفل بذلك، فحرم الماء على آل النبيّ (صلى الله عليه وآله) وكان بعض الممسوخين يتباهى ويفخر لحرمانهم الحسين من الماء، فقد انبرى الوغد اللثيم المهاجر بن أوس صوب الإمام رافعاً صوته قائلاً:

(يا حسين ألا ترى الماء يلوح كأنه بطون الحيات، والله لا تذوقه أو تموت دونه..)(٧).

واشتدّ عمرو بن الحجاج نحو الحسين، وهو فرح كأنما ظفر بمكسب أو مغنم قائلاً:

(ياحسين هذا الفرات تلغ فيه الكلاب، وتشرب فيه الحمير والخنازير، والله لا تذوق منه جرعة حتى تذوق الحميم في نار جهنّم..)(٨)

وكان هذا الوغد الأثيم ممن كاتب الإمام الحسين (عليه السلام) بالقدوم إلى الكوفة.

وانبرى جلف آخر من أوغاد أهل الكوفة وهو عبد الله بن الحصين الأزدي فنادى بأعلى صوته لتسمعه مخابرات ابن مرجانة فينال منه جوائز وهباته، قائلاً:

(يا حسين ألا تنظر إلى الماء كأنه كبد السماء، والله لا تذوق منه قطرة حتى تموت عطشاً..).

فرفع الإمام يديه بالدعاء عليه قائلاً:

(اللهم اقبله عطشاً، ولا تغفر له أبداً..)(٩).

لقد تمادى هؤلاء الممسوخون بالشر، وسقطوا في هوة سحيقة من الجرائم والآثام ما لها من قرار.

سقاية العباس لأهل البيت: _____

والتاع أبو الفضل العباس كأشد ما تكون اللوعة ألماً ومحنة حينما رأى أطفال أخيه وأهل بيته وهم يستغيثون من الظم القاتل، فانبرى الشهم النبيل لتحصيل الماء، وأخذه بالقوة، وقد صحب معه ثلاثين فارساً، وعشرين رجلاً، وحملوا معهم عشرين قربة، وهجموا بأجمعهم على نهر الفرات وقد تقدّمهم نافع بن هلال المرادي وهو من أفذاذ أصحاب الإمام الحسين فاستقبله عمرو بن الحجاج الزبيدي وهو من مجرمي حرب كربلاء وقد أعهد إليه حراسة الفرات فقال لنافع:

(ما جاء بك؟..).

(جئنا لنشرب الماء الذي حلاّتمونا عنه..).

(اشرب هنيئاً..).

(أفأشرب والحسين عطشان، ومن ترى من أصحابه؟..).

(لا سبيل إلى سقى هؤلاء، إنّما وضعنا بهذا المكان لمنعهم عن الماء..).

ولم يعن به الأبطال من أصحاب الإمام، وسخروا من كلامه، فاقتحموا الفرات ليملأوا قريهم منه، فثار في وجوههم عمرو بن الحجاج ومعه مفرزة من جنوده، والتحم معهم بطل كربلاء أبو الفضل، ونافع بن هلال، ودارت بينهم معركة إلا أنه لم يقتل فيها أحد من الجانبين، وعاد أصحاب الإمام بقيادة أبي الفضل، وقد ملأوا قريهم من الماء.

لقد أروى أبو الفضل عطاشى أهل البيت، وأنقذهم من الظمأ، وقد منح منذ ذلك اليوم لقب (السقاء) وهو من أشهر ألقابه، وأكثرها ذيوغاً بين الناس كما أنه من أحب الألقاب وأعزها عنده (١٠).

أمان الشمر للعباس وأخوته: —

وبادر الخبيث الدنس شمر بن ذى الجوشن إلى سيده ابن مرجانة فأخذ منه أماناً لأبى الفضل وأخوته الممجدين، وقد ظن أنه سيخدعهم، ويفردهم عن أخيهم أبى الأحرار، وبذلك يضعف جيش الإمام، لأنه يخسر هؤلاء الأبطال الذين هم من أشجع فرسان العرب، وجاء الخبيث يشتد كالكلب، وقد وقف أمام جيش الحسين، وهتف منادياً:

(أين بنو أختنا العباس وأخوته؟..).

وهبت الفتية كالأسود، فقالوا له:

(ما تريد يا بن ذى الجوشن؟..).

فانبرى مستبشراً يبدى لهم الحنان المزيف قائلاً:

(لكم الأمان..).

وصاحوا به، وهم يتميرون من الغيظ، فقد لدعهم قوله:

(لعنك الله، ولعن أمانك، أتؤمننا، وابن بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله)، لا أمان له..)(١١).

وولى الخبيث خائباً فقد ظن أن السادة الأماجد أخوة الإمام من طراز أصحابه الممسوخين الذين باعوا ضمائرهم على ابن مرجانة ووهبوا حياتهم للشيطان، ولم يعلم أن أخوة الحسين (عليه السلام) من أفذاذ الدنيا، الذين صاغوا الكرامة الإنسانية، وصنعوا الفخر والمجد للإنسان.

زحف الجيوش لحرب الحسين —

وزحفت طلائع الشرك والكفر لحرب ريحانة رسول الله (صلى الله عليه وآله) فى عصر الخميس لتسع خلون من شهر محرم، بعد أن صدرت إليهم الأوامر المشددة من ابن مرجانة بتعجيل القتال وحسم الموقف خوفاً من تبلور رأى الجيش وحدوث انقسام فى صفوفه، وكان الإمام محتبياً بسيفه أمام بيته اذ خفق برأسه، فسمعت شقيقته عقيلة بنى هاشم السيدة زينب أصوات الرجال، وتدافعهم نحو أخيها، فانبرت إليه فزعة مرعوبة، فايقظته، فرفع الإمام رأسه فرأى أخته مذهولة، فقال لها بعزم وثبات:

(إني رأيت رسول الله (صلى الله عليه وآله) في المنام، فقال: إنك تروح إلينا..).

وذابت نفس العقيلة أسي وحسرات، وانهارت قواها، ولم تملك نفسها أن لظمت وجهها، وراحت تقول:

(يا ويلتناه..)(١٢).

والتفت أبو الفضل إلى أخيه فقال له:

(أتاك القوم..).

وطلب الإمام منه أن يتعرف على خبرهم قائلاً:

(اركب بنفسى أنت يا أخی، حتى تلقاهم، فتقول لهم: ما بدا لكم، وما تريدون؟..).

لقد فدى الإمام أخاه بنفسه، وهو مما يدل على سمو مكانته، وعظيم منزلته، وأنه قد بلغ قمة الإيمان، وأعلى مراتب المتقين...
واسرع أبو الفضل نحو الجيش، ومعه عشرون فارساً من أصحابه، ومن بينهم زهير بن القين، وحبيب بن مظاهر، وسألهم أبو
الفضل عن سبب زحفهم، فقالوا له:

(جاء أمر الأمير أن نعرض عليكم النزول على حكمه، أو نناجزكم..)(١٣).

وقفل العباس إلى أخيه، فأخبره بمقاتلتهم، وراح حبيب بن مظاهر يعظهم ويحذرهم من عقاب الله قائلاً:

(أما والله بسس القوم يقدمون غداً على الله عز وجل، وعلى رسوله محمد (صلى الله عليه وآله) وقد قتلوا ذريته، وأهل بيته،
المتهجدين بالأسحار، الذاكرين الله كثيراً بالليل والنهار، وشيعته الأتقياء الأبرار..)(١٤).

وردّ عليه بوقاحة عزرة بن قيس فقال له:

(يا بن مظاهر إنك لتزكى نفسك..).

وانبرى إليه البطل الفذّ زهير بن القين فقال له:

(إتق الله يا بن قيس، ولا تكن من الذين يعينون على الضلال ويقتلون النفس الزكية الطاهرة، عترة خيرة الأنبياء..).

فأجابه عزرة:

(كنت عندنا عثمانياً فما بالك؟..).

فردّ عليه زهير بمنطق الشرف والإيمان:

(والله ما كتبت إلى الحسين، ولا أرسلت إليه رسولاً، ولكن الطريق جمعني وإياه، فلما رأيته ذكرت به رسول الله (صلى الله عليه وآله) وعرفت ما تقدمون من غدركم، ونكتنكم، وسبيلكم إلى الدنيا، فرأيت أن أنصره، وأكون في حزبه حفظاً لما ضيَّعتم من حقّ رسول الله (صلى الله عليه وآله)..(١٥).

لقد كان كلام زهير حافلاً بالصدق بجميع رحابه، فقد بيّن أنّه لم يكتب إلى الإمام بالقدوم إلى الكوفة لأنّه كان عثمانياً الهوى، ولكنه حينما التقى بالإمام في الطريق ووقف على واقع الحال من غدر أهل الكوفة به، ونكتنهم لبيعته انقلب رأساً على عقب، وصار من أنصار الإمام، ومن أكثرهم مودةً وحباً له، لأنّ الإمام من الصق الناس برسول الله (صلى الله عليه وآله).

وعلى أيّ حال فقد عرض أبو الفضل مقالة القوم على أخيه، فقال له:

(ارجع إليهم فإن استطعت أن تؤخّرهم إلى غدوة لعلنا نصلّى لربّنا هذه الليلة، ندعوه، ونستغفره فهو يعلم أنّي أحبّ الصلاة، وتلاوة كتابه، وكثرة الدعاء والاستغفار..).

لقد أراد ربحانة رسول الله (صلى الله عليه وآله) أن يودّع الحياة الدّنيا بأثمن ما فيها وهي الصلاة والدعاء والاستغفار وتلاوة القرآن الكريم، وأن يواجه الله تعالى وقد تزوّد منها.

ورجع أبو الفضل (عليه السلام) إلى معسكر ابن مرجانة فأخبرهم بمقالة أخيه فعرض ابن سعد ذلك على الخبيث الدنس شمر بن ذى الجوشن خوفاً من وشايته إذا استجاب لطلب الإمام، فقد كان شمر المنافس الوحيد لابن سعد على إمارة الجيش كما كان عيناً عليه، كما أراد أن يكون شريكاً له في المسؤولية فيما إذا عاتبه ابن زياد على تأخير الحرب.

ولم يبد الشمر أى رأى له في الموضوع، وإنما أحاله لابن سعد ليكون هو المسؤول عنه، وانبرى عمرو بن الحجاج الزبيدي فأنكر عليهم هذا التردد والإحجام عن إجابة الإمام قائلاً:

(سبحان الله!! والله لو كان من الديلم ثم سألكم هذه المسألة لكان ينبغي أن تجيبوه..)(١٦).

ولم يزد ابن الحجاج على ذلك، فلم يقل لهم: أنّه ابن رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأنهم هم الذين غرّوه وكاتبوه بالقدوم إلى مصرهم، لم يقل ذلك خوفاً من أن تنقل الاستخبارات العسكرية إلى ابن زياد ذلك فينال العقاب والحرمان، وأيد ابن الأشعث مقالته، فاستجاب ابن سعد إلى تأجيل الحرب، وأوعز إلى رجل من أصحابه أن يعلن ذلك، فدنا من معسكر الإمام ورفع صوته قائلاً:

يا أصحاب الحسين بن علي قد أجّلناكم يومكم هذا إلى غد فإن استسلمتم ونزلتم على حكم الأمير وجّهنا بكم إليه وإن أبيتم نأجزناكم... (١٧).

وأرجئ القتال إلى صبيحة اليوم العاشر من المحرم، وظلّ جيش ابن سعد ينتظرون الغد هل يجيبهم الإمام أو يرفض ما دعوه إليه.

الإمام يأذن لأصحابه بمفارقتة: _____

وجمع ريحانة رسول الله (صلى الله عليه وآله) أهل بيته وأصحابه في ليلة العاشر من المحرم، وعرض عليهم ما يلاقيه من الشهادة، وطلب منهم أن ينطلقوا في رحاب الأرض ويتركوه وحده ليلقى مصيره المحتوم، وقد أراد بذلك أن يكونوا على بيّنة من أمرهم فقال لهم:

(أثنى على الله أحسن الثناء، وأحمده على السراء والضراء... اللهم إني أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة، وعلمتنا القرآن، وفهمتنا في الدين وجعلت لنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدة، ولم تجعلنا من المشركين.

أمّا بعد: فإنّي لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت خيراً من أهل بيتي، فجزاكم الله جميعاً عنّي خيراً، ألا وأنّي لأظنّ يومنا من هؤلاء الأعداء غداً، وأنّي قد أذنت لكم جميعاً فانطلقوا في حلّ ليس عليكم منّي ذمام، وهذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً، وليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي، فجزاكم الله جميعاً خيراً، ثم تفرّقوا في سوادكم ومدائنكم حتى يفرج الله، فإن القوم إنّما يطلبونني ولو أصابوني لهوا عن طلب غيري... (١٨).

وتمنّلت روعة الإيمان، وسرّ الإمامة بهذا الخطاب العظيم الذي كشف جانباً كبيراً عن نفسية أبي الأحرار، فقد تجنّب في هذا الموقف الدقيق الحاسم جميع ألوان المنعطفات، ووضع أصحابه وأهل بيته أمام الأمر الواقع فقد حدد لهم النتيجة التي لا مفرّ منها وهي القتل والتضحية، وليس هناك أي شيء آخر من متع الدنيا، وقد طلب منهم أن يخلوا عنه وينصرفوا تحت جنح الظلام، فيتخذونه سترًا دون كل عين، فلعلّهم يخلجون أن يبتعدوا عنه في وضح النهار، فقد جعلهم في حلّ من التزاماتهم تجاهه، وقد عرفهم أنّه بالذات هو الهدف لتلك الوحوش الكاسرة المتعطشة إلى سفك دمه، فإذا ظفروا به فلا إرب لهم في طلب غيره.

جواب أهل البيت: _____

ولم يكذ يفرغ الإمام من خطابه حتى هبّت الصفوة من أهل البيت (عليهم السلام)، وعيونهم تفيض دموعاً، وهم يعلنون ولاءهم له، وتضحيتهم في سبيله، وقد مثلهم أبو الفضل العباس (عليه السلام) فخاطب الإمام قائلاً:

لم نفعل ذلك؟! لنبقى بعدك، لا أرانا الله ذلك أبداً..).

والتفت الإمام إلى السادة من أبناء عمّه من بنى عقيل، فقال لهم:

(حسبكم من القتل بمسلم، اذهبوا فقد أذنت لكم...).

وهبت فتية آل عقيل كالأسود تتعالى أصواتهم، قائلين:

(إذن ما يقول الناس:، وما نقول:، إنا تركنا شيخنا وسيّدنا، وبنى عمومتنا خير الأعمام، ولم نرم معهم بسهم، ولم نطعن برمح، ولم نضرب بسيف ولا ندرى ما صنعوا، لا والله لا نفعل، ولكن نفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلينا نقاتل معك، حتى نرد موردك، فقبّح الله العيش بعدك...)(١٩).

لقد صمّموا على حماية الإمام العظيم، والدفاع عن أهدافه ومبادئه، واختاروا الموت تحت ظلال الأسنّة على الحياة التي لا هدف فيها.

جواب أصحابه: —

أمّا أصحاب الإمام (عليه السلام) فهم أحرار هذه الدنيا، وقد اندفعوا يعلنون للإمام (عليه السلام) الفداء والتضحية دفاعاً عن المبادئ المقدّسة التي ناضل من أجلها الإمام، وقد انبرى مسلم بن عوسجة فخطب الإمام قائلاً:

(أنحن نخلي عنك، وبماذا نعتذر إلى الله في أداء حقّك، أما والله لا أفارقك حتى أطعن في صدورهم برمحي، وأضرب بسيفي ما ثبت قائمه بيدي، ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم لقدفتمهم بالحجارة حتى أموت معك..).

لقد عبّرت هذه الكلمات عن عميق إيمانه بريحانة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأنّه سيذبّ عنه حتى النفس الأخير من حياته.

وانبرى بطل آخر من أصحاب الإمام وهو سعيد بن عبد الله الحنفي فخطب الإمام قائلاً:

(والله لا نخليك حتى يعلم الله أنا قد حفظنا غيبة رسوله (صلى الله عليه وآله) فيك، أما والله لو علمت أنّي أقتل، ثم أحيى، ثم أحرق، ثم أذرى يفعل بي ذلك سبعين مرّة لما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك، وكيف لا أفعل ذلك، وإنّما هي قتلة واحدة، ثم هي الكرامة التي لا انتضاء لها أبداً...).

وليس في قاموس الوفاء أصدق، ولا أنبل من هذا الوفاء، فهو يتمنى من صميم قلبه أن تجرى عليه عملية القتل سبعين مرّة ليفدى الإمام (عليه السلام)، ليحفظ بذلك غيبة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وكيف لا يستطيب الموت في سبيله وإنّما هو مرّة واحدة، ثم هي الكرامة الأبدية التي لا انتضاء لها.

وانبرى زهير بن القين فأعلن نفس الاتجاه الذى أعلنه المجاهدون من أخوانه قائلاً:

(والله لوددت أنى قتلت، ثم نشرت، ثم قتلت حتى أقتل ألف مرة، وان الله عز وجل يدفع بذلك القتل عن نفسك، وعن أنفس هؤلاء الفتيان من أهل بيتك..)(٢٠).

أرأيتم وفاء هؤلاء الأبطال، فهل تجدون لهم مثيلاً فى تأريخ هذه الدنيا، لقد ارتفعوا إلى مستوى من النبيل والشهامة لم يبلغه أى إنسان وقد أعطوا بذلك الدروس المشرقة فى الدفاع عن الحق.

وأعلن بقيّة أصحاب الإمام (عليه السلام) الترحيب بالشهادة فى سبيل إمامهم، فجزاهم خيراً، وأكد لهم جميعاً أنهم سينعمون فى الفردوس الأعلى، ويحشرون مع النبيين والصدّيقين، وهتفوا جميعاً:

(الحمد لله الذى أكرمنا بنصرك، وشرفنا بالقتل معك، أولاً ترضى أن نكون معك فى درجتك يا بن رسول الله..)(٢١).

لقد أترعت نفوس هؤلاء الأبطال بالإيمان العميق، فتحرّروا من جميع ملذات الحياة ولهوها، واتجهوا صوب الله، فرفعوا راية الإسلام عالية خفاقة فى رحاب هذا الكون.

إحياء الليل بالعبادة: —

وأقبل الإمام (عليه السلام) مع الصفوة الطّيبة المؤمنة من أهل بيته وأصحابه نحو الله يناجونه بقلوبهم وعواطفهم، وهم يسألونه العفو والغفران ولم يذق أحد منهم طعم الرقاد، فقد كانوا ما بين راعع وساجد وقارئ للقرآن، وكان لهم دوى كدوى النحل.

وكانوا ينتظرون انبثاق نور الصبح بفارغ الصبر لينالوا الشهادة بين يديّ ريحانة رسول الله (صلى الله عليه وآله).

وأما معسكر ابن زياد فقد باتوا وهم فى شوق لطلوع الصبح ليريقوا دماء أهل البيت (عليهم السلام) ليتقرّبوا بها إلى سيّدهم ابن مرجانة.

يوم عاشوراء —

وليس مثل يوم العاشر من المحرمّ فى مآسيه وكآبته وكوارثه، فلم تبق محنة من محن الدنيا، ولا فاجعة من فواجع الدهر إلا جرت على ريحانة رسول الله (صلى الله عليه وآله) فلا يوم مثل ذلك اليوم الخالد فى دنيا الأحران.

ص: ٩٥

دعاء الإمام:

وخرج أبو الأحرار من خبائه فرأى البيداء قد ملئت خيلاً ورجالاً وقد شهر أولئك البغاة اللثام سيوفهم لإراقة دمه، ودماء الصفة البررة من أهل بيته وأصحابه لينالوا الأجر الزهيد من الإرهابى المجرم ابن مرجانة، ودعا الإمام بمصحف فنشره على رأسه، ورفع يديه بالدعاء إلى الله قائلاً:

(اللهم أنت ثقى فى كل كرب، ورجائى فى كل شدة، وأنت لى فى كل أمر نزل بى ثقة وعدة، كم من هم يضعف فيه الفؤاد، وتقلّ فيه الحيلة، ويخذل فيه الصديق، ويشمت العدو أنزلته بك، وشكوته إليك رغبة منى إليك عمّن سواك، ففرّجته وكشفته، وكفيتته، فأنت لى كل نعمة، وصاحب كل حسنة، ومنتهى كل رغبة..)(٢٢).

لقد أتاب الإمام إلى الله، وأخلص له، فهو وليّه، والملجأ الذى يلجأ إليه فى كل نائبة نزلت به.

خطبة الإمام: —

ورأى الإمام (عليه السلام) أن يقيم الحجّة البالغة على أولئك الوحوش قبل أن يقدموا على اقرار الجريمة، فدعا براحلته فركبها، واتجه نحوهم، فخطب فيهم خطابه التاريخى الحافل بالمواعظ والحجج، فقد نادى بصوت عال يسمعه جلّهم:

(أيّها الناس اسمعوا قولى، ولا تعجلوا حتى أعظكم بما هو حقّ لكم علىّ، وحتى أعتذر إليكم من مقدّمى عليكم، فإن قبلتم عذرى، وصدقتم قولى وأعطيتمونى النصف، كنتم بذلك أسعد، ولم يكن لكم علىّ سبيل، وإن لم تقبلوا منى العذر، ولم تعطوا النصف من أنفسكم، فاجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة، ثم امضوا إلىّ ولا تنظرون، إن وليّ الله الذى نزل الكتاب وهو يتولّى الصالحين..).

وحمل الأثير هذه الكلمات إلى السيدات من عقائل النبوة، ومخدرات الرسالة فتصارخن بالبكاء، فبعث إليهنّ أخاه العباس، وابنه عليّاً، وقال لهما:

سكّتاهنّ، فلعمري ليكثر بكأؤهنّ، ولما سكتن استرسل فى خطابه فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على جدّه الرسول (صلى الله عليه وآله) وعلى الملائكة والأنبياء، وقال فى ذلك: ما لا يحصى ذكره، ولم يسمع لا قبله، ولا بعده أبلغ منه فى منطقه(٢٣).

وكان مما قاله:

(أيّها الناس إن الله تعالى خلق الدنيا فجعلها دار فناء وزوال، متصرّفة بأهلها حالاً بعد حال، فالمغرور من غرّته، والشقى من فتنته، فلا تعرّنكم هذه الدنيا، فإنها تقطع رجاء من ركن إليها، وتخيّب طمع من طمع فيها، وأراكم قد اجتمعتم على أمر قد ص:

أسخظتم الله فيه عليكم، وأعرض بوجهه الكريم عنكم، وأحلّ بكم نعمته، فنعم الرب ربنا، وبئس العبيد أنتم، أقررتم بالطاعة وآمنتتم بالرسول (صلى الله عليه وآله) ثم أنكم زحفتم إلى ذريته وعترته تريدون قتلهم، لقد استحوذ عليكم الشيطان فأنساكم ذكر الله العظيم، فتباً لكم ولما تريدون، إنا لله وإنا إليه راجعون هؤلاء قوم كفروا بعد إيمانهم فبعداً للقوم الظالمين).

لقد وعظ الإمام (عليه السلام) أعداءه بهذه الكلمات التي تمثل هدى الأنبياء ومحتتهم في أممهم، لقد حذرهم من فتنة الدنيا وغرورها، وأهاب بهم من التورط في قتل عترة نبيهم وذريته، وأنهم بذلك يستوجبون العذاب الأليم، والسخط الدائم، ثم استرسل الإمام الممتحن في خطابه فقال:

(أيها الناس: انسيوني من أنا، ثم ارجعوا إلى أنفسكم، وعاتبوها، وانظروا هل يحلّ لكم قتلي، وانتهاك حرمتي، ألسنت ابن بنت نبيكم، وابن وصيه، وابن عمه، وأول المؤمنين بالله، والمصدق لرسوله، بما جاء من عند ربه، أو ليس حمزة سيّد الشهداء عمّ أبي، أو ليس جعفر الطيّار عمّي، أو لم يبلغكم قول رسول الله (صلى الله عليه وآله) لي ولأخي (هذان سيّدا شباب أهل الجنة) فإن صدقتموني بما أقول: وهو الحقّ، والله ما تعمّدت الكذب منذ علمت أن الله يمقت عليه أهله، ويضرب به من اختلقه، وإن كذبتموني فإن فيكم من إذا سأتموه أخبركم، سلوا جابر بن عبد الله الأنصاري، وأبا سعيد الخدري، وسهل ابن سعد الساعدي، وزيد بن أرقم، وأنس بن مالك يخبروكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله (صلى الله عليه وآله) لي ولأخي أما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي...).

وكان خليفاً بهذا الخطاب المشرق أن يرجع لهم حوازب عقولهم، ويردّهم عن طغيانهم، فقد وضع الإمام النقاط على الحروف، ودعاهم إلى التأمل ولو قليلاً ليعنوا في شأنه أليس هو حفيد نبيهم وابن وصيه، وهو سيّد شباب أهل الجنة كما أعلن ذلك جدّه الرسول (صلى الله عليه وآله) وفي ذلك حصانة له من سفك دمه وانتهاك حرمته، ولكن الجيش الأموي لم يع هذا المنطق، فقد خلد إلى الجريمة، واسودّت ضمائرهم، وحيل بينهم وبين ذكر الله.

وتصدّى لجواب الإمام شمر بن ذي الجوشن وهو من الممسوخين فقال له:

(هو يعبد الله على حرف إن كان يدرى ما تقول..).

وحقاً أنه لم يع ما يقول الإمام فقد ران على قلبه الباطل، وغرق في الإثم وقد أجابه حبيب بن مظاهر وهو من أعلام الهدى والصلاح فقال له:

(والله إنني لأراك تعبد الله على سبعين حرفاً، وأنا أشهد أنك صادق ما تدرى ما يقول، قد طبع الله على قلبك..).

والتفت الإمام إلى قطعات الجيش فخاطبهم:

(فإن كنتم في شكّ من هذا القول، أفتشكّون أنّي ابن بنت نبيكم فو الله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبيّ غيري فيكم، ولا

فى غيركم، ويحكم أطلبوننى بقتيل منكم قتلته، أو مال لكم استهلكته، أو بقصاص جراحة..).

وغدوا حيارى لا يملكون جواباً لردّه، ثم التفت الإمام إلى قادة الجيش الذين دعوه بالقدوم إلى مصرهم فقال لهم:

(يا شيبث بن ربعى، ويا حجار بن أبجر، ويا قيس بن الأشعث، ويا زيد بن الحرث، ألم تكتبوا إلىّ أن قد أينعت الثمار، وأخضر الجناب، وإنما تقدم على جند لك مجنّدة...).

وأنكر أولئك الخونة كتبهم، وما عاهدوا عليه الله من نصرهم للإمام، فقالوا له: (لم نفعل ذلك..).

وبهر الإمام من ذلك وراح يقول:

(سبحان الله!! بلى والله لقد فعلتم..).

وأعرض الإمام عنهم، ووجّه خطابه إلى جميع قطعات الجيش قائلاً:

(أيّها الناس: إذا كرهتمونى فدعونى أنصرف عنكم إلى مأمنى من الأرض..).

وتصدّى لجوابه قيس بن الأشعث وهو من رؤوس المنافقين، وقد خلع كل شرف وحياء فقال له:

(أولا تنزل على حكم بنى عمّك، فإنّهم لن يروك إلا ما تحبّ، ولن يصل إليك منهم مكروه..).

فردّ عليه الإمام قائلاً:

(أنت أخو أخيك، أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل، لا والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل، ولا أفرّ فرار العبيد، عباد الله إننى عذت بربى وربّكم أن ترجمون، أعود بربى وربّكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب..)(٢٤).

ومثّلت هذه الكلمات عزّة الأحرار وشرف الأباة، ولم تنفذ إلى قلوب أولئك الجفأة الذين غرقوا فى الجهل والآثام.

وتكلّم أصحاب الإمام مع معسكر ابن زياد، وأقاموا عليهم الحجّة، وذكرّوهم بجور الأمويين، وما أنزلوه بهم من الجور والاستبداد، ولم تجد معهم النصائح شيئاً، وراحوا يفخرون بنصرتهم لابن مرجانة، وقتالهم لريحانة رسول الله (صلى الله عليه وآله).

- خطاب آخر للإمام الحسين:

وانبرى سبط رسول الله (صلى الله عليه وآله) مرّة أخرى إلى إسداء النصيحة إلى الجيش الأموى مخافة أن يدعى أحد منهم أنّه

غير عارف بالأمر، فانطلق (عليه السلام) نحوهم، وقد نشر كتاب الله العظيم على رأسه، واعتَمَّ بعمامة جدّه رسول الله (صلى الله عليه وآله) وتقلّد لامة حربه، وكان على هيبة تحكى هيبه الأنبياء والأوصياء فقد علت أسارير النور على وجهه الكريم فقال:

(تَبّاً لَكُمْ أَيُّهَا الْجَمَاعَةُ وَتَرْحاً حِينَ اسْتَصْرَخْتُمُونَا وَالْهَيْنَ فَأَصْرَخْنَاكُمْ مَوْجِفِينَ (٢٥)، سلّتم علينا سيفاً لنا فى إيمانكم، وحششتم (٢٦) علينا ناراً إقتدحناها على عدوّنا وعدوكم، فأصبحتم ألباً (٢٧) لأعدائكم على أوليائكم بغير عدل أفسوه فيكم ولا أمل أصبح لكم فيهم.

مهلاً - لكم الويلات - تركتمونا والسيف مشيم (٢٨) والجأش طامن والرأى لمّا يستحصف، ولكن أسرعتم إليها كطيرة الدبا (٢٩)، وتداعيتم إليها كتهافت الفراش (٣٠).

فسحقاً لكم يا عبيد الأُمَّة وشذاذ الأحزاب، ونبذة الكتاب ومحرّفى الكلم، وعصبة الآثام، وفتنة الشيطان، ومطفئ السنن.

أهؤلاء تعضدون، وعنا تتخاذلون؟!؛

أجل والله غدر فيكم قديم وشجت إليه أصولكم (٣١) وتأزّرت عليه فروعكم (٣٢)، فكنتم أخبث شجر شجاً للنّاظر وأكلة للغاصب.

ألا وإنّ الدّعى ابن الدّعى قد ركز بين اثنتين: بين السّلة (٣٣) والدّلة، وهيهات منّا الدّلة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون وحجور طابت وطهرت وأنوف حميّة ونفوس أبيّة: من أن تؤثر طاعة اللّثام على مصارع الكرام.

ألا وإنّى زاحف بهذه الأسرة مع قلة العدد وخذلة الناصر).

ثمّ أوصل كلامه (عليه السلام) بأبيات فروة بن مسيک المرادى:

(فإن نهزم فهزامون قدماً وإن نغلب فغير مغلبينا
وما إن طببنا جبن ولكن منايانا ودولة آخرينا
إذا ما الموت رفع عن أناس كلاكله أناخ بأخرينا
فأفنى ذلكم سروات قومي كما أفنى القرون الأولينا
فلو خلد الملوك إذا خلدنا ولو بقى الكرام إذا بقينا
فقل للشّامتين بنا: أفيقوا سيلقى الشّامتون كما لقينا)

ثم قال: (أيم والله لا تلبثون بعدها إلا كريت ما يركب الفرس حتى يدور بكم دور الرّحى وتقلق بكم قلق المحور، عهد عهده إلىّ أبى عن جدّى، فأجمعوا أمركم وشركاءكم، ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة، ثم اقضوا إلىّ ولا تنظرون.

إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ، مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

اللَّهُمَّ احْبِسْ عَنْهُمْ قَطْرَ السَّمَاءِ، وَايُتْ عَلَيْهِمْ سَنِينَ كَسَنَى يُوسُفَ، وَسَلِّطْ عَلَيْهِمْ غَلَامَ ثَقِيفٍ يَسُومُهُمْ كَأَسَأَ مُصْبِرَةً، فَإِنَّهُمْ كَذَّبُونَا وَخَذَلُونَا، وَأَنْتَ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ).

ومثل هذا الخطاب الثورى صلابة الإمام، وقوة عزمته، وشدة بأسه، فقد استهان بأولئك الأقرام الذين هبوا إليه يستنجدون به، ويستغيثون لينقذهم من جور الأمويين وظلمهم، فلما أقبل إليهم انقلبوا عليه رأساً على عقب، فسأوا عليه سيوفهم وشهروا عليه رماحهم تقريباً للطعنة والظالمين لهم، والمستبدين بشؤونهم في حين أنه لم يبدو من أولئك الحكام أية بارقة من العدل فيهم، كما أعلن الإمام عن رفضه الكامل لدعوة ابن مرجانة من الاستسلام له، فقد أراد له الذل والهوان، وهيهات أن يرضخ لذلك وهو سبط الرسول (صلى الله عليه وآله) والممثل الأعلى للكرامة الإنسانية، فقد صمم على الحرب بأسرته التي مثلت البطولات ليحفظ بذلك كرامته، وكرامة الأمة.

وقد أخبرهم الإمام عن مصيرهم بعد قتلهم له أنهم لا ينعمون بالحياة، وان الله يسلط عليهم من يسقيهم كأساً مصبرة، ويجرعهم العصص وينزل بهم العذاب الأليم، وقد تحقّق ذلك فلم يمض قليل من الوقت بعد اقترافهم لقتل الإمام حتى ثار عليهم البطل العظيم، والثائر المجاهد، ناصر الإسلام الزعيم الكبير المختار بن يوسف الثقفي فقد ملأ قلوبهم رعباً وفزعاً، ونكّل بهم تنكيلاً فظيماً، وأخذت شرطته تلاحقهم في كل مكان فمن ظفرت به قتلته أشرّ قتلة، ولم يفلت منهم إلا القليل.

وقد وجم جيش ابن سعد بعد هذا الخطاب التاريخي الخالد، وودّ الكثيرون منهم أن تسيخ بهم الأرض.

استجابة الحرّ: _____

واستيقظ ضمير الحرّ، وثابت نفسه إلى الحقّ بعدما سمع خطاب الإمام، وجعل يتأمّل، ويفكّر في تلك اللحظات الحاسمة من حياته فهل يلتحق بالحسين، ويحفظ بذلك آخرته، وينقذ نفسه من عذاب الله وسخطه، أو أنه يبقى على منصبه كقائد فرقة في الجيش الأموي، وينعم بصلات ابن مرجانة، واختار الحرّ نداء ضميره الحيّ، وتغلّب على هواه، فصمم على الالتحاق بالإمام الحسين (عليه السلام) وقبل أن يتوجّه إليه أسرع نحو ابن سعد القائد العام للقوات المسلّحة فقال له:

(أمقاتل هذا الرجل؟..).

ولم يلتفت ابن سعد إلى انقلاب الحرّ فقد أسرع قائلاً بلا تردّد:

(إي والله قتلاً أيسره أن تسقط فيه الرؤوس وتطيح الأيدي..).

لقد أعلن ذلك أمام قادة الفرق ليظهر إخلاصه لابن مرجانة، فقال له الحرّ:

(أفمالكم فى واحدة من الخصال التى عرضها عليكم رضا..).

واندفع ابن سعد قائلاً:

(لو كان الأمر لى لفعلت، ولكن أميرك أبى ذلك..).

ولما أيقن الحرّ أن القوم مصمّمون على حرب الإمام عزم على الالتحاق بمعسكر الإمام، وقد سرت الرعدة بأوصاله، فأنكر عليه ذلك زميله المهاجر ابن أوس فقال له:

(والله إن أمرك لمريب، والله ما رأيت منك فى موقف قطّ مثل ما أراه الآن، ولو قيل لى: من أشجع أهل الكوفة لما عدوتك..).

وأعرب له الحرّ عمّا صمّم عليه قائلاً:

(إنى والله أخيرّ نفسى بين الجنة والنار، ولا أختار على الجنة شيئاً ولو قطعت وأحرقت..).

وألوى بعنان فرسه نحو الإمام (٣٤) وكان مطرفاً برأسه إلى الأرض حياءً وندماً على ما صدر منه تجاه الإمام، ولما دنا منه رفع صوته ودموعه تتبلور على خديّه قائلاً:

(اللهمّ إليك أنيب، فقد أرعبت قلوب أوليائك، وأولاد نبيك، يا أبا عبد الله إنى تائب فهل لى من توبة..).

ونزل عن فرسه، وأقبل يتضرّع ويتوسّل إلى الإمام ليمنحه التوبة قائلاً:

(جعلنى الله فداك يا بن رسول الله، أنا صاحبك الذى حبستك عن الرجوع، وجعجت بك فى هذا المكان، والله الذى لا إله إلا هو، ما ظننت أن القوم يردون عليك ما عرضت عليهم أبداً، ولا يبلغون منك هذه المنزلة أبداً، فقلت فى نفسى: لا أبالى أن أطيع القوم فى بعض أمرهم، ولا يرون أنى خرجت من طاعتهم، وأما هم فيقبلون بعض ما تدعوهم إليه، والله لو ظننت أنّهم لا يقبلون منك ما ركبتها منك، وأنى قد جئتك تائباً مما كان منى إلى ربى، مواسياً لك بنفسى حتى أموت بين يديك أفترى لى توبة..).

واستبشر به الإمام، ومنحه الرضا والعفو، وقال له:

(نعم يتوب الله عليك ويغفر..)(٣٥).

وملأ الفرح قلب الحرّ حينما فاز برضاء ريحانة رسول الله (صلى الله عليه وآله) واستأذنه أن ينصح أهل الكوفة لعلّ بعضهم أن يرجع إلى الحقّ، ويتوب إلى الرشاد، فأذن له الإمام فى ذلك، فانبرى الحرّ إليهم رافعاً صوته:

(يا أهل الكوفة لأمكم الهبل (٣٤) والعبر (٣٧) أدعوتموه حتى إذا أتاكم أسلمتموه وزعمتم أنكم قاتلوا أنفسكم دونه، ثم عدوتم عليه لتقتلوه، أمسكتم بنفسه، وأحطتم به، ومنعتموه من التوجه إلى بلاد الله العريضة، حتى يأمن، ويأمن أهل بيته، فأصبح كالأسير، لا يملك لنفسه نفعاً، ولا يدفع عنها ضرراً، ومنعتموه ومن معه عن ماء الفرات الجاري يشربه اليهودي والنصراني والمجوسي، ويتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه، وها هو وأهله قد صرعهم العطش، بثما خلفتم محمداً (صلى الله عليه وآله) في ذريته، لاسقاكم الله يوم الظمأ إن لم تتوبوا، وتفزعوا عما أنتم عليه...) (٣٨).

وودّ الكثير منهم أن تسيخ بهم الأرض، فهم على يقين بضلالة حربهم إلا أنهم استجابوا لرغباتهم النفسية في حبّ البقاء، وتوقّع بعضهم فرموا الحرّ بالنبل وكان ذلك ما يملكونه من حجّة في الميدان.

الهوامش

١ - ذو حسم: - بضم الحاء وفتح السين - جبل هناك.

٢ - المرعى الوييل: هو الطعام الوخيم الذي يخاف وباله وسوء عاقبته.

٣ - حياة الإمام الحسين ٣: ٩٨،

٤ - مقتل المكرم: ٢٣١،

٥ - الطبري ٦: ٢٣٠،

٦ - مرآة الزمان في تواريخ الأعيان: ٨٩،

٧ - أنساب الأشراف ٣: ١٨١،

٨ - أنساب الأشراف ٣: ١٨٢، تاريخ ابن الأثير ٤: ٢٣٦،

٩ - الصراط السوي في مناقب آل النبي: ٨٦،

١٠ - أنساب الأشراف ٣: ١٨١،

١١ - أنساب الأشراف ٣: ١٨٤،

١٢ - ابن الأثير ٣: ٢٨٤،

١٣ - البداية والنهاية ٨: ١٧٧.

ص: ١٠٢

- ١٤ - حياة الإمام الحسين ٣ / ١٧٢،
- ١٥ - أنساب الأشراف ٣: ١٨٤،
- ١٦ - تأريخ ابن الأثير ٣: ٢٨٥،
- ١٧ - حياة الإمام الحسين ٣: ١٦٥،
- ١٨ - ابن الأثير ٣: ٢٨٥،
- ١٩ - تأريخ الطبرى ٦: ٢٣٨،
- ٢٠ - حياة الإمام الحسين ٣: ١٦٨، - ١٦٩،
- ٢١ - حياة الإمام الحسين ٣: ١٦٨، - ١٦٩،
- ٢٢ - تأريخ ابن عساكر ١٣: ١٤،
- ٢٣ - تأريخ الطبرى ٦: ٢٤٢،
- ٢٤ - تأريخ الطبرى ٦: ٤٣،
- ٢٥ - موجفين: أى مسرعين إليكم.
- ٢٦ - حششتم: أى أوقدتم النار.
- ٢٧ - الباء: أى قوة لأعدائكم، وذلك باجتماعهم.
- ٢٨ - مشيم: أى السيف فى غمده لا يسئل.
- ٢٩ - الدبا : بفتح الدال، وتخفيف الباء الجراد قبل أن يطير.
- ٣٠ - الفراش: جمع فراشة وهى صغار البق تنهافت فى النار لضعف بصرها.
- ٣١ - وشجت: أى التفت عليه أصولكم.

٣٢ - تأزرت: أى نبتت عليه فروعكم.

٣٣ - السلة: بكسر السين استلال السيوف.

٣٤ - تأريخ الطبرى ٦: ٢٤٤

٣٥ - الكامل ٢: ٢٨٨

٣٦ - الهبل: النكل.

٣٧ - العبر: البكاء وجريان الدمع.

٣٨ - الكامل ٣: ٢٢٩.

الحرب

وارتبك ابن سعد حينما علم أن الحرّ قد التحق بمعسكر الإمام، وهو من كبار قادة الفرق فى جيشه، وخاف أن يلتحق غيره بالإمام، فرحف الباغى الأتيم نحو معسكر الإمام، وأخذ سهماً كأنه كان نابتاً فى قلبه، فأطلقه صوب الإمام، وهو يصيح:

(اشهدوا لى عند الأمير أنّى أول من رمى الحسين...).

واتخذ بذلك وسيلة لفتح باب الحرب، وطلب من الجيش أن يشهدوا له عند سيده ابن مرجانة أنه أول من رمى ريحانة رسول الله (صلى الله عليه وآله) ليكون أميره على ثقة من إخلاصه، ووفائه للأمويين، وأن ينفى عنه كل شبهة من أنه غير جادّ فى حربه للحسين.

وتتابعت السهام كأنها المطر على أصحاب الإمام، فلم يبق أحد منهم إلا أصابه سهم منها، والتفت الإمام إلى أصحابه، فأذن لهم فى الحرب قاتلاً:

(قوموا ياكرام فهذه رسل القوم إليكم...).

وتقدّمت طلائع الشرف والمجد من أصحاب الإمام إلى ساحة الحرب لتحامى عن دين الله، وتذبّ عن ريحانة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهم على يقين لا يخامرهم أدنى شكّ أنّهم على الحق، وأن الجيش الأموى على ضلال، قد سخط الله عليه وأحلّ به نعمته.

لقد تقابل اثنان وثلاثون فارساً، وأربعون راجلاً من أصحاب الإمام (عليه السلام) مع عشرات الآلاف من الجيش الأموي، وكانت تلك القلّة المؤمنة كفؤاً لتلك الكثرة التي تملك أضخم العتاد والسلاح، فقد أبدت تلك القلّة من صنوف البسالة والشجاعة ما يبهر العقول ويحير الألباب.

الحملة الاولى:

وشئت قوّات ابن سعد هجوماً عاماً واسع النطاق على أصحاب الإمام (عليه السلام) وخاضوا معهم معركة ضارية، وقد اشترك فيها المعسكر الأموي بكامل قطعاته، وقد انبرى إليهم أصحاب الإمام بعزم وإخلاص لم يشهد له نظير في جميع الحروب التي جرت في الأرض، فقد كانوا يخترقون جيش ابن سعد بقلوب أقوى من الصخر، وقد أنزلوا بهم خسائر فادحة في الأرواح والمعدّات.

وقد استشهد نصف أصحاب الإمام (عليه السلام) في هذه الحملة (١).

المبارزة بين المعسكرين:

ولما سقطت الصفوة الطاهرة من أصحاب الإمام (عليه السلام) صرعى على أرض الشهادة والكرامة، هبّ من بقي منهم إلى المبارزة، وقد دعر المعسكر بأسره من بطولاتهم النادرة، فكانوا يستقبلون الموت بسرور بالغ، وقد ضجّ الجيش من الخسائر الفادحة التي منى بها، وقد بادر عمرو بن الحجاج الزبيدي وهو من الأعضاء البارزين في قيادة جيش ابن سعد فهتف في الجيش ينهاهم عن المبارزة قائلاً:

(يا حمقى أتدرون من تقاتلون، تقاتلون نقاوة فرسان أهل مصر وقوماً مستميتين، فلا يبرز لهم منكم أحد إلا قتلوه، والله لو لم ترموهم إلا بالحجارة لقتلتموهم..)(٢).

وحكت هذه الكلمات ما اتصف به السادة أصحاب الإمام الحسين من الصفات البارزة فهم فرسان أهل مصر، وذلك بما يملكونه من الشجاعة، وقوة الإرادة وأنهم أهل البصائر فلم يندفعوا إلى نصرته الإمام (عليه السلام) إلا على بصيرة من أمرهم، وليسوا كخصومهم الذين تردّوا في الغواية، وماجوا في الباطل والضلال، كما أنّهم قوم مستميتون ولا أمل لهم في الحياة.

لقد توفرت في أصحاب الإمام جميع النزعات الخيّرة، والصفات الكريمة من الإيمان والوعى والشجاعة وشرف النفس، ويقول المؤرّخون: ان ابن سعد استصوب رأى ابن الحجاج فأوعز إلى قوّاته بترك المبارزة معهم (٣) وشنّ عمرو بن الحجاج هجوماً عاماً على من تبقي من أصحاب الإمام، والتحموا معهم التحاماً رهيباً، واشتدّ القتال كأشدّ ما يكون القتال عنفاً (٤) وقد استنجد عروة بن قيس بابن سعد ليمدّه بالرماة والرجال قائلاً:

(ألا ترى ما تلقى خيلى هذا اليوم من هذه العدة اليسيرة، ابعث إليهم الرجال والرماة).

وطلب ابن سعد من المنافق شيبث بن ربيع القيام بنجدته فأبى، وقال:

(سبحان الله شيخ مضر، وأهل المصر عامة، تبعته فى الرماة لم تجد لهذا غيرى!!).

ولما سمع ذلك ابن سعد منه دعى الحصين بن نمير فبعث معه المجففة وخمسائة من الرماة، فسددوا لأصحاب الحسين (عليه السلام) السهام فأصابوا خيولهم فعقروها، فصاروا كأنهم رجاله، ولم تزدهم هذه الخسارة إلا استبسالة فى القتال، واستهانة بالموت، فثبتوا كالجبال الشامخات، ولم يتراجعوا خطوة واحدة، وقد قاتل معهم الحر بن يزيد الرياحى راجلاً، واستمر القتال كأعنف وأشد ما يكون ضراوة، وقد وصفه المؤرخون بأنه أشد قتال حدث فى التاريخ، وقد استمر حتى انتصف النهار (٥).

أداء فريضة الصلاة: —

وانتصف النهار وحن ميقات صلاة الظهر فوقف المؤمن المجاهد أبو ثمامة الصائدى فجعل يقلب وجهه فى السماء كأنه ينتظر أعز شيء عنده وهى أداء صلاة الظهر، فلما رأى الشمس قد زالت التفت إلى الإمام قائلاً:

(نفسى لنفسك الفداء، أرى هؤلاء قد اقتربوا منك، والله لا تقتل حتى أقتل دونك، وأحب أن ألقى ربى، وقد صليت هذه الصلاة التى قد دنا وقتها..).

لقد كان الموت منه كقاب قوسين أو أدنى، وهو لم يغفل عن ذكر ربه، ولا عن أداء فرائضه، وجميع أصحاب الإمام (عليه السلام) كانوا على هذا السمى إيماناً بالله، وإخلاصاً فى أداء فرائضه.

ورفع الإمام رأسه فجعل يتأمل فى الوقت فرأى أن قد حل وقت أداء الفريضة فقال له:

(ذكرت الصلاة، جعلك الله من المصلين الذاكرين، نعم هذا أول وقتها..).

وأمر الإمام (عليه السلام) أصحابه أن يطلبوا من معسكر ابن زياد أن يكفوا عنهم القتال ليصلوا لربهم، فسألوهم ذلك فانبرى الرجس الخبيث الحصين ابن نمير قائلاً: (إنها لا تقبل) فقال له حبيب بن مظاهر بسخرية:

(زعمت أن لا تقبل الصلاة من آل رسول الله (صلى الله عليه وآله) وتقبل منك يا حمار!!).

وحمل عليه الحصين فسارع إليه حبيب ف ضرب وجه فرسه بالسيف فثبت به الفرس فسقط عنها، وبادر إليه أصحابه فاستنقذوه (٦).

واستجاب أعداء الله - مكيدة - لطلب الإمام فسمحوا له أن يؤدّي فريضة الصلاة، وانبرى الإمام للصلاة، وتقدّم أمامه سعيد بن عبدالله الحنفى يقيه بنفسه السهام والرماح واغتنم أعداء الله انشغال الإمام وأصحابه بالصلاة فراحوا يرشقونهم بسهامهم وكان سعيد الحنفى يبادر نحو السهام فيتقيها ب صدره ونحره، ووقف ثابتاً كالجبل لم ترحزه السهام، ولا الرماح والحجارة التى اتخذته هدفاً لها ولم يكن يفرغ الإمام من صلاته حتى أثنى سعيد بالجراح فهوى إلى الأرض يتخبّط بدمه وهو يقول:

(اللهمّ العنهم لعن عاد وشمود، وأبلغ نبيك منى السلام، وأبلغه ما لقيت من ألم الجراح، فإننى أردت بذلك ثوابك ونصرة ذرية نبيك..)

والتفت إلى الإمام قائلاً له بصدق وإخلاص:

(أوفيت يا بن رسول الله؟..)

فأجابه الإمام شاكرًا له:

(نعم أنت أمامى فى الجنة..)

وملئت نفسه فرحاً حينما سمع قول الإمام، ثم فاضت نفسه العظيمة إلى بارئها فقد أصيب بثلاثة عشر سهماً عدا الضرب والظعن (٧) وكان هذا منتهى ما وصل إليه الوفاء، والإيمان، والولاء للحقّ.

مصرع بقيّة الأنصار: _____

وتسابت بقيّة الباقية من أصحاب الإمام من شيوخ وشباب، وأطفال إلى ساحات المعركة، وقد أبلوا بلاءً حسناً يقصر عنه كل وصف وإطراء، وقد جاهدوا جهاداً لم يعرف التاريخ له نظيراً فى جميع عمليات الحروب التى جرت فى الأرض، فقد قابلوا على قلّة عددهم الجيوش المكثفة، وأنزلوا بها أفدح الخسائر، ولم تضعف لأى رجل منهم عزيمة، ولم تلن لهم قناة، وقد خضبوا جميعاً بالدماء، وهم يشعرون بالغبطة، ويشعرون بالفخار.

وقد وقف الإمام العظيم على مصارعهم، فكان يتأمل بوجهه الوديع فيهم، فيراهم مضمخين بدم الشهادة، فكان يقول:

(قتلة كقتلة النبيين وآل النبيين..)(٨).

لقد سمت أرواحهم الطاهرة إلى الرفيق الأعلى، وقد حازوا الفخر الذى لا فخر مثله، فقد سجلوا شرفاً لهذه الأمة لا يساويه شرف، وأعطوا للإنسانية أفضل ما قدّم لها من عطاء على امتداد التاريخ.

وعلى أى حال فقد شارك أبو الفضل العباس الأنصار الممجدين فى جهادهم وخاض معهم غمار الحرب، وكانوا يستمدون منه البسالة، وقوة الإرادة والعزم على التضحية، وقد أنقذ بعضهم حينما وقع عليه التفاف من بعض قطعات الجيش الأموى.

مصارع آل النبىء: —

وبعد ما سقطت الصفوة الطيبية من أصحاب الإمام (عليه السلام) صرعى وهى معطرة بدم الشهادة والكرامة هبت أبناء الأسرة النبوية كالأسود الضارية للدفاع عن ربحانة رسول الله (صلى الله عليه وآله) والذب عن عقائل النبوة ومخدرات الرسالة، وأول من تقدم إلى البراز منهم شبيهه رسول الله (صلى الله عليه وآله) خَلَقًا وَخُلُقًا على الأكبر (عليه السلام) فقد أثر الموت وسخر من الحياة فى سبيل كرامته، ولا يخضع لحكم الدعوى ابن الدعوى، ولما رآه الإمام أخذ يطيل النظر إليه، وقد ذابت نفسه أسى وحسرات، وأشرف على الاحتضار، فرفع شيبته الكريمة نحو السماء وراح يقول بحرارة وألم ممض:

(اللهم اشهد على هؤلاء القوم فقد برز إليهم غلام أشبه الناس برسولك محمد (صلى الله عليه وآله) خَلَقًا وَخُلُقًا ومنطقًا، وكنا إذا اشتقنا إلى رؤية نبيك نظرنا إليه... اللهم امنعهم بركات الأرض وفرقهم تفريقًا، ومزقهم تمزيقًا، واجعلهم طرائق قددا ولا ترضى الولاية عنهم أبدًا، فإنهم دعونا لينصرونا، ثم عدوا علينا يقاتلوننا...).

لقد تجسدت صفات الرسول الأعظم النفسية والخلقية بحفيده على الأكبر (عليه السلام)، وأعظم بهذه الثروة التى ملكها سليل هاشم وفخر عدنان، وقد تقطع قلب الإمام (عليه السلام) على ولده، فصاح بآبن سعد:

(مالك قطع الله رحمك، ولا بارك لك فى أمرك، وسلط عليك من يذبحك بعدى على فراشك، كما قطعت رحمى، ولم تحفظ قرابتى من رسول الله (صلى الله عليه وآله) ثم تلا قوله تعالى: (إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم)(٩٠)..).

وشيع الإمام (عليه السلام) فلذة كبده وهو غارق بالأسى والحسرات وخلفه عقائل النبوة، وقد علا منهن الصراخ والعيويل على شبيهه رسول الله (صلى الله عليه وآله) الذى ستتناهب شلوه السيوف والرماح وبرز الفتى مزهواً إلى حومة الحرب، لم يختلج فى قلبه خوف ولا رعب، وهو يحمل هيبة جدّه الرسول (صلى الله عليه وآله)، وشجاعة جدّه الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) وبأس حمزة عم أبيه، وإباء الحسين، وتوسط حراب الأعداء، وهو يرتجز بفخر وعزة قائلاً:

أنا على بن الحسين بن على نحن ورب البيت أولى بالنبى

تالله لا يحكم فينا ابن الدعوى(١٠)

أجل - يابن الحسين - فخر هذه الأمة، ورائد نهضتها وكرامتها، أنت وأبوك أحق بالنبى (صلى الله عليه وآله) وأولى بمركزه ومقامه من هؤلاء الأعداء الذين حولوا حياة المسلمين إلى جحيم لا يطاق.

وأعلن عليّ بن الحسين (عليه السلام) في رجزه عن عزمه الجبار وإرادته الصلبة، وأنه يؤثر الموت على الذلّ والخنوع للدعي ابن الدعيّ، وقد ورث هذه الظاهرة من أبيه سيّد الأباة في الأرض، والتحم فخر هاشم مع أعداء الله، وقد ملأ قلوبهم رعباً وفزعاً، وقد أبدى من الشجاعة والبسالة ما يقصر عنه الوصف، ويقول المؤرّخون: أنه ذكرهم بطولات جدّه الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) الذي هو أشجع إنسان خلقه الله، فقد قتل فيما يقول المؤرّخون مائة وعشرين فارساً (١١) سوى المجروحين، وألحّ عليه العطش، وأضر به الظمّ فقفّل راجعاً إلى أبيه يطلب منه جرعة من الماء، ويودعه الوداع الأخير واستقبله أبوه بأسى، فبادر عليّ قائلاً:

(يا أبة العطش قد قتلني، وثقل الحديد قد أجهدني، فهل إلى شربة ماء من سبيل أتقوى بها على الأعداء..).

والتاع الإمام كأشدّ ما تكون اللوعة ألماً ومحنة، فقال له بصوت خافت، وعيناه تفيضان دموعاً:

(واغوثة، ما أسرع الملتقى بجديك، فيسقيك بكأسه شربة لا نظماً بعدها أبداً..).

وأخذ لسانه فمصّه ليريه ظمّاه فكان كشقّة مبرد من شدّة العطش ودفع إليه خاتمه ليضعه في فيه (١٢).

لقد كان هذا المنظر الرهيب من أقسى ما فجع به ريحانة رسول الله (صلى الله عليه وآله) لقد رأى فلذة كبده وهو في ريعان الشباب وغضارة العمر كالبدن في بهائه قد استوعبت الجراحات جسمه الشريف، وقد أشرف على الموت من شدّة العطش، وهو لم يستطع أن يسعفه بجرعة ماء، يقول الحجّة الشيخ عبد الحسين صادق:

يشكو لخير أب ظمّاه وما اشتكى ظمّ الحشا إلا إلى الظامى الصدى

كلّ حشاشته كصالية الغضا ولسانه ظمّاً كشقّة مبرد

فانصاع يؤثره عليه بريقه لو كان ثمة ريقه لم يجمد

وقفل فخر هاشم إلى ساحة الحرب، قد فتكت الجروح بجسمه الشريف وفتت العطش قلبه، وهو لم يحفل بما هو فيه من آلام لا تطاق، وإنما استوعبت مشاعره وعواطفه وحدة أبيه يراه وقد أحيط به من كل جانب ومكان، وجميع قطعات الجيش متعطشة إلى سفك دمه لتتقرّب به إلى ابن مرجانة... وجعل عليّ بن الحسين يرتجز أمام الأعداء:

الحرب قد بانت لها حقائق وظهت من بعدها مصادق

والله ربّ العرش لا نفارق جموعكم أو تغمد البوارق (١٣)

لقد تجلّت حقائق الحرب، وبرزت معالمها وأهدافها بين الفريقين، فالإمام الحسين إنّما يناضل من أجل رفع الغبن الاجتماعي، وضمان حقوق المظلومين والمضطهدين وتوفير الحياة الكريمة لهم، والجيش الأموي إنّما يقاتل من أجل استعباد الناس وجعل المجتمع بستاناً للأمويين يستغلّون جهودهم، ويرغمونهم على ما يكرهون، وأعلن عليّ بن الحسين - في رجزه - أنه سيبقى يناضل عن الأهداف النبيلة والمبادئ العليا حتى تغمد البوارق.

وجعل نجل الحسين يقاتل أشدّ القتال وأعنفه حتى قتل تمام المائتين (١٤) وقد ضجّ العسكر من شدّة الخسائر الفادحة التي منى بها، فقال الرجس الخبيث مرّة بن منقذ العبدى: عليّ آثم العرب إن لم أئكل أباه (١٥) وأسرع الخبيث الدنس إلى شبيهه رسول الله (صلى الله عليه وآله) فطعنه بالرمح في ظهره وضربه ضربة غادرة بالسيف على رأسه، ففلق هامته، فاعتنق الفتى فرسه ظناً منه أنّه سيرجعه إلى أبيه ليودعه الوداع الأخير إلا أن الفرس حمله إلى معسكر الأعداء، فأحاطوا به من كلّ جانب، فقطعوه بسيوفهم إرباً إرباً تشقيماً منه لما ألحقه بهم من الخسائر الفادحة، ورفع الفتى صوته:

(عليك منى السلام أبا عبد الله، هذا جدّى رسول الله (صلى الله عليه وآله) قد سقاني بكأسه شربة لا أظمأ بعدها، وهو يقول: إن لك كأساً مذخورة...).

وحمل الأثير هذه الكلمات إلى أبيه فقطعت قلبه، ومزقت أحشائه ففرغ إليه وهو خائر القوى منهّد الركن، قد أشرف على الموت، فوضع خده على خد ولده، وهو جنة هامة، قد قطعت شلوه السيوف فأخذ يذرف أحرّ الدموع، وهو يقول بصوت خافت قد حمل شظايا قلبه الممزق:

(قتل الله قوماً قتلوك، يا بنى ما أجرأهم على الله، وعلى انتهاك حرمة الرسول على الدنيا بعدك العفا...)(١٦).

وكان العباس (عليه السلام) إلى جانب أخيه، وقد ذاب قلبه وذهبت نفسه حزناً وأسى على ما حلّ بهم من عظيم الكارثة وأليم المصاب، لقد قتل ابن أخيه الذي كان ملء فمّ الدنيا في فضائله ومآثره، فما أعظم رزيتته، وما أجلّ مصابه!!

وهرعت الطاهرة حفيذة النبيّ (صلى الله عليه وآله) زينب(عليها السلام) إلى جثمان ابن أخيها فانكبّت عليه تضمخه بدموعها، وهى صارخة معولة تندبه بأشجى ما تكون الندبة قائلة:

(وابن أخاه...).

(واثمة فؤاده..).

وأثر منظرها الحزين فى نفس الإمام، فجعل يعزّيها بمصابها الأليم وهو بحالة المحتضر، ويردد بأسى:

(على الدنيا بعدك العفا يا ولدى..).

لك الله يا أبا عبدالله على هذه الكوارث التي تميد بالصبر، وتهتز من هولها الجبال، لقد تجرعتها في سبيل هذا الدين الذي عبثت به العصاة المجرمة من الأمويين وعملائهم.

مصارع آل عقيل: —

وهبت الفتية الأماجد من آل عقيل إلى الجهاد لتفدى إمام المسلمين وريحانة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهي ساخرة من الحياة ومستهيئة بالموت وقد نظر الإمام (عليه السلام) إلى بسالتهم واندفاعهم بشوق إلى الذبّ عنه، فقال:

(اللهم اقتل قاتل آل عقيل، صبراً آل عقيل إن موعدكم الجنة...) (١٧).

وقد ألحقوا بالعدو خسائر فادحة، فقد قاتلوا كالأسود الضارية وعلوا بإرادتهم، وعزمهم الجبار على جميع فصائل ذلك الجيش وقد استشهد منهم تسعة من أطائب الشباب، ومن مفاخر أبناء الأسرة النبوية، وفيهم يقول الشاعر:

عين جـودى بعبرة وعويل وانـدبى إن ندبت آل الرسول

سبعة كلهم لصلب على قد أصيبوا وتسعة لعقيل (١٨)

وقد سعدت أرواحهم الطاهرة إلى الفردوس الأعلى حيث مقرّ النبيين والصدّيقين والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

مصارع أبناء الحسن: —

وسارعت الفتية من أبناء الإمام الزكيّ أبي محمد (عليه السلام) إلى نصرة عمّهم والذبّ عنه، وقلوبهم تنزف دماً على ما حلّ به من عظيم الكوارث والخطوب وكان من بينهم القاسم، وقد وصفه المؤرّخون بأنّه كالقمر في جمال طلّعه وبهائه وقد غذاه عمّه بمواهبه، وأفرغ عليه أشعة من روحه حتى صار من أمثلة الكمال والآداب.

وكان القاسم وبقية اخوانه يتطلّعون إلى محنة عمهم، ويودّون أن يردوا عنه عوادى الأعداء بدمائهم وأرواحهم، وكان القاسم يقول: (لا يقتل عمّي وأنا حيّ) (١٩).

وانبرى القاسم يطلب الإذن من عمّه ليجاهد بين يديه، فاعتنقه الإمام، وعيناه تفيضان دموعاً، وأبى أن يأذن له إلا أن الفتى ألحّ عليه، وأخذ يقبل يديه ورجليه ليسمح له بالجهاد، فأذن له، وانطلق رائد الفتوة الإسلامية إلى ساحة الحرب، ولم يضيف على جسده الشريف لامة حرب، محتقراً لأولئك الوحوش، وقد التحم معهم يحصد رؤوسهم، ويجندل أبطالهم كأن المنايا كانت طوع إرادته، وبينما هو يقاتل إذ انقطع شسع نعله الذي هو أشرف من ذلك الجيش، وأنف سليل النبوة والإمامة أن تكون إحدى

رجليه بلا نعل فوقف يشدّه متحدّياً لهم، واغتنم هذه الفرصة كلب من كلاب ذلك الجيش وهو عمرو بن سعد الأزدي فقال:
والله لأشدنّ عليه، فأنكر عليه ذلك حميد بن مسلم، وقال له:

(سبحان الله!! وما تريد بذلك، يكفيك هؤلاء القوم الذين ما يبقون على أحد منهم...).

فلم يعن الخبيث به، وشدّ عليه فضربه بالسيف على رأسه الشريف فهوى إلى الأرض كما تهوى النجوم صريعاً يتخبط بدمه
القاني، ونادى بأعلى صوته:

(يا عمّاه أدركني..).

وكان الموت أهون على الإمام من هذا النداء، فقد تقطع قلبه، وفاضت نفسه أسي وحسرات، وسارع نحو ابن أخيه فعمد إلى
قاتله فضربه بالسيف، فاتقاها بساعده فقطعها من المرفق، وطرحه أرضاً، وحملت خيل أهل الكوفة لاستنقاذه إلا أن الأثيم هلك
تحت حوافر الخيل، وانعطف الإمام نحو ابن أخيه فجعل يوسعه تقبيلاً والفتى يفحص بيديه ورجليه كالطير المذبوح، وجعل
الإمام يخاطبه بدوب روحه:

(بعداً لقوم قتلوك، ومن خصمهم يوم القيامة فيك جدك، عزّ والله على عمك أن تدعوه فلا يجيبك، أو يجيبك فلا ينفحك
صوت، والله هذا يوم كثر واتره، وقلّ ناصره...)([٢٠](#)).

وحمل الإمام ابن أخيه بين ذراعيه، وهو يفحص بيديه ورجليه ([٢١](#)) حتى فاضت نفسه الزكية بين يديه، وجاء به فألقاه بجوار
ولده على الأكبر، وسائر القتلى الممجّدين من أهل بيته، وأخذ يطيل النظر إليهم وقد تصدّع قلبه، وأخذ يدعو على السفكة
المجرمين من أعدائه الذين استباحوا قتل ذرية نبيّهم، قائلاً:

(اللهم احصهم عدداً، ولا تغادر منهم أحداً، ولا تغفر لهم أبداً صبراً يا بني عمومتى، صبراً يا أهل بيتي، لا رأيتم هواناً بعد هذا
اليوم أبداً...)([٢٢](#)).

وبرز من بعده عون بن عبدالله بن جعفر، ومحمد بن عبدالله بن جعفر وأمّهما العقيلة الطاهرة حفيدة الرسول (صلى الله عليه وآله)
زينب الكبرى (عليها السلام) وقد نالا شرف الشهادة مع حفيد النبيّ وريحانته، ولم يبق بعد هؤلاء الصفوة من أهل البيت (عليهم
السلام) إلا أخوة الإمام الحسين (عليه السلام) وفي طليعتهم أخوه أبو الفضل العباس (عليه السلام) وكان إلى جانب أخيه كقوة
ضاربة يحميه من أي اعتداء عليه، وقد شاركه في جميع آلامه وأحزانه.

على ضفاف العلقمى —

وذاب قلب أبي الفضل أسيّ وحزناً، وودّ أن المنيّة قد اختطفته، ولا يشاهد تلك الكوارث والخطوب التي تذهل كل كائن حيّ، وتميد بالصبر، ولا يقوى على تحملها أى إنسان إلا أولى العزم من أنبياء الله الذين امتحن الله قلوبهم للإيمان واصطفاهم على عباده.

ومن بين تلك الكوارث المذهلة التي عاناها أبو الفضل (عليه السلام) أنه كان يستقبل فى كل لحظة شاباً أو غلاماً لم يراهق الحلم من أهل بيته قد مزّت أشلاءهم سيوف الأمويين وحرابهم، ويسمع صراخ بنات الرسالة، وعقائل النبوة، وهنّ يلطنن وجوههن، ويندبن بأشجى ما تكون الندبة أولئك البدور الذين تضحخوا بدم الشهادة دفاعاً عن ريحانة رسول الله (صلى الله عليه وآله)... ومن بين المحن الشاقة التي عاناها أبو الفضل (عليه السلام) أنه يرى أخاه، وشقيق روحه الإمام الحسين (عليه السلام) قد أحاطت به أوغاد أهل الكوفة لتتقرّب بقتله إلى سليل الأعداء ابن مرجانة، وقد زادت هذه المحن إيماناً وتصميماً على مناجزة أعداء الله، وبذله حياته فداءً لسبط رسول الله (صلى الله عليه وآله).

ونعرض - بإيجاز - إلى شهادته وما رافق ذلك من أحداث.

العباس مع أخوته: —

وانبرى بطل كربلاء إلى أشقائه بعد شهادة الفتية من أهل البيت (عليهم السلام) فقال لهم:

(تقدّموا يا بنى أمى حتى أراكم نصحتم لله ولرسوله، فإنه لا ولد لكم...) (٢٣).

لقد طلب من أخوانه الممجدين أن يقدموا نفوسهم قرابين لدين الله، وأن ينصحوا فى جهادهم لله ورسوله، ولم يلحظ فى تضحيتهم أى اعتبار آخر من النسب وغيره، والتفت أبو الفضل إلى أخيه عبد الله فقال له:

(تقدّم يا أخى حتى أراك قتيلاً، وأحتسبك...) (٢٤).

واستجابت الفتية إلى نداء الحق فهبوا للدفاع عن سيّد العترة وإمام الهدى الحسين (عليه السلام).

قول رخيص:

ومن أهزل الأقوال، وأبعدها عن الحق ما ذكره ابن الأثير ان العباس (عليه السلام) قال لأخوته: (تقدّموا حتى أرتكم، فإنه لا ولد لكم...) (٢٥).

ص: ١١٣

لقد قالوا بذلك، ليقلّلوا من أهمية هذا العملاق العظيم الذى هو من ذخائر الإسلام، ومن مفاخر المسلمين، وهل من الممكن أن يفكّر فخر هاشم فى الناحية المادية فى تلك الساعة الرهيبة التى كان الموت المحتم منه كقاب قوسين أو أدنى، مضافاً إلى الكوارث التى أحاطت به، فهو يرى أخاه قد أحاطت به جيوش الأمويين، وهو يستغيث فلا يغاث، ويسمع صراخ عقائل النبوة ومخدرات الرسالة، فقد كان همّه الوحيد الرحيل من الدنيا، واللحوق بأهل بيته الذين حصدتهم سيوف الأمويين، وبالإضافة لهذا كله فإن السيدة أم البنين أم السادة الأماجد كانت حيّة فهى التى تحوز ميراث أبنائها لأنها من الطبقة الأولى لو كان لأبنائها أموال فإن أباهم الإمام أمير المؤمنين قد انتقل من هذه الدنيا ولم يخلف صفراء ولا بيضاء، فمن أين جاءت أبنائه الأموال... ومن المحتمل قوياً أن يكون الوارد فى كلام سيّدنا أبى الفضل (عليه السلام) (حتّى أثاركم..) أى أطلب بئاركم فحرفّ كلامه.

مصارع أخوة العباس:

واستجاب السادة أخوة العباس إلى نداء أخيهم فهبوا للجهاد، ووطّنوا نفوسهم على الموت دفاعاً عن أخيهم ريحانة رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فقد برز عبدالله ابن أمير المؤمنين (عليه السلام) والتحم مع جيوش الأمويين وهو يرتجز:

شيخي على ذو الفخار الأطول من هاشم الخير الكريم المفضل

هذا حسين بن النبي المرسل عنه نحامى بالحسام المصقل

تفديه نفسى من أخ مبجل يا رب فامنحنى ثواب المنزل

لقد أعرب بهذا الرجز عن اعتزازه وافتخاره بأبيه الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) باب مدينة علم النبي (صلى الله عليه وآله) ووصيه، كما اعتزّ بأخيه سيّد شباب أهل الجنّة الإمام الحسين (عليه السلام)، وقد أعلن أنّه إنّما يدافع عنه لأنّه ابن النبي (صلى الله عليه وآله) ويلتمس بذلك أن يمنحه الله الدرجات الرفيعة.

ولم يزل الفتى يقاتل أعنف القتال وأشدّه حتى شدّ عليه رجس من أرجاس أهل الكوفة وهو هانى بن ثبيت الحضرمى فقتله (٢٦).

وبرز من بعده أخوه جعفر، وكان له من العمر تسع عشرة سنة فجعل يقاتل قتال الأبطال فبرز إليه قاتل أخيه فقتله (٢٧).

وبرز من بعده أخوه عثمان وهو ابن إحدى وعشرين سنة فرماه خولى بسهم فأضعفه، وشدّ عليه رجس من بنى دارم وأخذ رأسه ليتقرّب به إلى ابن الأمة الفاجرة عبيد الله بن مرجانة (٢٨).

لقد سمت أرواحهم الطاهرة إلى الرفيق الأعلى، وهى أنضر ما تكون تفانياً فى مرضاة الله، وأشدّ ما تكون إيماناً بعدالة تضحياتهم التى هى من أنبل التضحيات فى العالم.

ووقف أبو الفضل على أشقائه الذين مزقت أشلاءهم سيوف الأعداء فجعل يتأمل في وجوههم المشرقة بنور الإيمان، وأخذ يتذكر وفاءهم، وسمو آدابهم، وأخذ يذرف عليهم أحرّ الدموع، وتمنى أن تكون المنية قد وافته قبلهم، واستعدّ بعد ذلك إلى الشهادة، والفوز برضوان الله.

مصرع أبي الفضل: —

ولما رأى أبو الفضل (عليه السلام) وحدة أخيه، وقتل أصحابه، وأهل بيته الذين باعوا نفوسهم لله انبرى إليه يطلب الرخصة منه ليلاقي مصيره المشرق فلم يسمح له الإمام، وقال له بصوت حزين النبرات:

(أنت صاحب لوائي..).

لقد كان الإمام يشعر بالقوة والحماية ما دام أبو الفضل فهو كقوة ضاربة إلى جانبه يذبّ عنه، ويردّ عنه كيد المعتدين، وألحّ عليه أبو الفضل قائلاً:

(لقد ضاق صدري من هؤلاء المنافقين، وأريد أن آخذ ثأري منهم..).

لقد ضاق صدره، وسئم من الحياة حينما رأى النجوم المشرقة من أخوته، وأبناء عمومته صرعى مجزرين على رمضاء كربلاء فتحرقّ شوقاً للأخذ بثأرهم والالتحاق بهم.

وطلب الإمام منه أن يسعى لتحصيل الماء إلى الأطفال الذين صرعهم العطش فانبرى الشهم النبيل نحو أولئك الممسوخين الذين خلت قلوبهم من الرحمة والرافة فجعل يعظّمهم، ويحذّرهم من عذاب الله ونقمته، ووجّه خطابه بعد ذلك إلى ابن سعد:

(يا ابن سعد هذا الحسين بن بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله) قد قتلتهم أصحابه وأهل بيته، وهؤلاء عياله وأولاده عطاشى فاسقوهم من الماء، قد أحرقت الظمأ قلوبهم، وهو مع ذلك يقول: دعوني أذهب إلى الروم أو الهند، وأخلّي لكم الحجاز والعراق..).

وساد صمت رهيب على قوأت ابن سعد، ووجم الكثيرون، وودّوا أن الأرض تسيخ بهم، فانبرى إليه الرجس الخبيث شمر بن ذى الجوشن فردّ عليه قائلاً:

(يا ابن أبي تراب، لو كان وجه الأرض كلّ ماء، وهو تحت أيدينا لما سقيناكم منه قطرة إلا أن تدخلوا فى بيعة يزيد...).

لقد بلغت الخسة، ولؤم العنصر، وخبث السريرة بهذا الرجس إلى مستوى ما له من قرار... وقفل أبو الفضل راجعاً إلى أخيه فأخبره بعتو القوم وطغيانهم، وسمع فخر عدنان صراخ الأطفال، وهم يستغيثون، وينادون:

(العطش العطش..).

ورآهم أبو الفضل قد ذبلت شفاههم، وتغيّرت ألوانهم، وأشرفوا على الهلاك، من شدة العطش، وفرغ أبو الفضل، وسرى الألم العاصف في محيآه، واندفع ببسالة لإغاثتهم، فركب فرسه، وأخذ معه القربة، فاقتحم الفرات، فانهزم الجيش من بين يديه، واستطاع أن يفكّ الحصار الذي فرض على الماء، فاحتلّه، وكان قلبه الشريف كصالية الغضا من شدة العطش، فاغترف من الماء غرفة ليشرب منه، إلا أنه تذكّر عطش أخيه، ومن معه من النساء والأطفال، فرمى الماء من يده، وامتنع أن يروى غليله، وقال:

يا نفس من بعد الحسين هونى وبعده لا كنت أن تكونى

هذا الحسين وارد المنون وتشربين بارد المعين

تالله ما هذا فعال دينى

ان الإنسانية بكل إجلال واحترام لتحيى هذه الروح العظيمة التى تألقت فى دنيا الفضيلة والإسلام وهى تلقى على الأجيال أروع الدروس عن الكرامة الإنسانية.

إن هذا الإيثار الذى تجاوز حدود الزمان والمكان كان من أبرز الذاتيات فى خلق سيّدنا أبى الفضل، فلم تمكّنه عواطفه المترعة بالولاء والحنان أن يشرب من الماء قبله، فأى إيثار أنبل أو اصدق من هذا الإيثار، ... واتجه فخر هاشم مزهواً نحو المخيم بعدما ملأ القربة، وهى عنده أئمن من حياته، والتحم مع أعداء الله وأنذال البشرية التحاماً رهيباً فقد أحاطوا به من كلّ جانب ليمنعوه من إيصال الماء إلى عطاشى آل النبىّ (صلى الله عليه وآله)، وأشاع فيهم القتل والدمار وهو يرتجز:

لا أرهب الموت اذ الموت زقا حتى أوارى فى المصاليت لقي

نفسى لسبط المصطفى الطهر وقا إنى أنا العباس أغدو بالسقا

ولا أخاف الشرّ يوم الملتقى

لقد أعلن بهذا الرجز عن شجاعته النادرة، وأنّه لا يخشى الموت، وإنّما يستقبله بثغر باسم دفاعاً عن الحق، وفداءً لأخيه سبط النبىّ (صلى الله عليه وآله).. وأنه لفخور أن يغدو بالسقاء مملوءاً من الماء ليروى به عطاشى أهل البيت.

وانهزمت الجيوش من بين يديه يطاردها الفزع والرعب، فقد ذكرهم ببطولات أبيه فاتح خيبر، ومحطّم فلول الشرك، إلا أن وضراً خبيئاً من جنباء أهل الكوفة كمن له من وراء نخلة، ولم يستقبله بوجهه، فضربه على يمينه ضربة غادرة فبراه، لقد قطع تلك اليد الكريمة التى كانت تفيض برأً وكرماً على المحرومين والفقراء، والتى طالما دافع بها عن حقوق المظلومين والمضطهدين، ولم يعن بها بطل كربلاء وراح يرتجز:

والله إن قـطـعـتـم يـمـيـنـي إنـي أـحـامـي أـبـداً عـن دـيـنـي

وعن إمام صادق اليقين نجل النبي الطاهر الأمين

ودلل بهذا الرجز على الأهداف العظيمة، والمثل الكريمة التي يناضل من أجلها فهو إنما يناضل دفاعاً عن الإسلام، ودفاعاً عن إمام المسلمين وسيّد شباب أهل الجنّة.

ولم يبعد العباس قليلاً حتى كمن له من وراء نخلة رجس من أرجاس البشرية وهو الحكيم بن الطفيل الطائي فضربه على يساره فبرأها، وحمل القربة بأسنانه - حسبما تقول بعض المصادر - وجعل يركض ليوصل الماء إلى عطاشي أهل البيت (عليهم السلام) وهو غير حافل بما كان يعانيه من نرف الدماء وألم الجراح، وشدّة العطش، وكان ذلك حقاً هو منتهى ما وصلت إليه الإنسانية من الشرف والوفاء والرحمة... وبينما هو يركض وهو بتلك الحالة إذ أصاب القربة سهم غادر فأريق مأوها، ووقف البطل حزيناً، فقد كان إراقة الماء عنده أشدّ عليه من قطع يديه، وشدّ عليه رجس فعلاه بعمود من حديد على رأسه الشريف ففلق هامته، وهوى إلى الأرض، وهو يؤدّي تحيته، ووداعه الأخير إلى أخيه قائلاً:

(عليك مني السلام أبا عبد الله...).

وحمل الأثير محنته إلى أخيه فمزقت قلبه، ومزقت أحشاءه، وانطلق نحو نهر العلقمي حيث هوى إلى جنبه أبو الفضل، واقتحم جيوش الأعداء، فوقف على جثمان أخيه فألقى بنفسه عليه، وجعل يضمخه بدموع عينيه، وهو يلفظ شظايا قلبه الذي مزقته الكوارث قائلاً:

(الآن انكسر ظهري، وقلّت حيلتي، وشمّت بي عدوى...).

وجعل إمام الهدى يطيل النظر إلى جثمان أخيه، وقد انهارت قواه، وانهدّ ركنه وتبددت جميع آماله، وودّ أن الموت قد وافاه قبله، وقد وصف السيّد جعفر الحلّي حالته بقوله:

فمشى لمصرعه الحسين وطرفه بين الخيام وبينه متقسم

ألفاه محجوب الجمال كأنه بدر بمنحطم الوشيج ملثم

فأكب منحنياً عليه ودمعه صبغ البسيط كأنما هو عندم

قد رام يلمثمه فلم ير موضعاً لم يدمه عضّ السلاح فيلثم

نادى وقد ملأ البوادي صيحة صم الصخور لهولها تتألم

أَخِي يَهْنِك النعيم ولم أخل ترضى بأن أرزى وأنت منعم
أَخِي مَنْ يَحْمِي بنات محمد إذ صرن يسترحمن من لا يرحم
ما خلت بعدك أن تشلّ سواعدي وتكف باصرتي وظهري يقصم
لسواك يالطم بالأكف وهذه بيض الضبا لك في جيبني تلطم
ما بين مصرعك الفظيع ومصرعي إلا كما أَدْعوك قبل وتنعّم
هذا حسامك من يذلّ به العدا ولواك هذا من به يتقدم
هونت يا ابن أبي مصارع فتيتي والجرح يسكنه الذي هو ألم

وهو وصف دقيق للحالة الراهنة التي حلّت بسيد الشهداء بعد فقدته لأخيه، ووصف شاعر آخر وهو الحاج محمد رضا الأزري وضع الإمام (عليه السلام) بقوله:

وهوى عليه ما هنالك قائلاً اليوم بان عن اليمين حسامها
اليوم سار عن الكتائب كبشها اليوم بان عن الهداة امامها
اليوم آل إلى التفرق جمعنا اليوم حلّ عن البنود نظامها
اليوم نامت أعين بك لم تتم وتسهدت أخرى فعز منامها
أشقيق روحى هل تراك علمت أن غودرت وانثالث عليك لثامها
قد خلت أطبقت السماء على الثرى أودكدت فوق الربى أعلامها
لكن أهان الخطب عندي انى بك لاحق أمراً قضى علامها

ومهما قال الشعراء والكتّاب فإنهم لا يستطيعون أن يصفون ما ألمّ بالإمام من فادح الحزن، وعظيم المصاب، ووصفه أرباب المقاتل بأنه قام من أخيه وهو لا يتمكّن أن ينقل قدميه، وقد بان عليه الانكسار، وهو الصبور، واتجه صوب المخيم، وهو يكفكف دموعه، فاستقبلته سكينه قائلة:

(أين عمى أبو الفضل،...).

ففرق بالبكاء، وأخبرها بنبرات متقطعة من شدة البكاء بشهادته، وذعرت سكينته، وعلا صراخها، ولما سمعت بطللة كربلاء حفيذة الرسول (صلى الله عليه وآله) بشهادة أخيها الذى ما ترك لونا من ألوان البرّ والمعروف إلا قدمه لها أخذت تعاني آلام الاحتضار، ووضعت يدها على قلبها المذاب، وهى تصحيح:

(وا أخاه، واعبّاساه، واضيغتنا بعدك...).

يا لهول الفاجعة.

يا لهول الكارثة.

لقد ضجّت البقعة من كثرة الصراخ والبكاء، وأخذت عقائل النبوة يلطمّن الوجوه وقد أيقن بالضياع بعده، وشاركهنّ الثاكل الحزين أبو الشهداء فى محتتهنّ ومصابهنّ، وقد علا صوته قائلاً:

(واضيغتنا بعدك يا أبا الفضل...).

لقد شعر أبو عبد الله (عليه السلام) بالضيعة والغربة بعد فقده لأخيه الذى ليس مثله أخ فى برّه ووفائه ومواساته، فكانت فاجعته به من أفسى ما منى به من المصائب والكوارث.

وداعاً يا قمر بنى هاشم.

وداعاً يا فجر كل ليل.

وداعاً يا رمز المواساة والوفاء.

سلام عليك يوم ولدت، ويوم استشهدت، ويوم تبعث حيّاً.

١ - حياة الإمام الحسين ٣: ٢٠٣.

٢ - أنساب الأشراف ٣: ١٩٢.

٣ - أنساب الأشراف ٣: ١٩٢.

٤ - حياة الإمام الحسين ٣: ٢١١.

- ٥ - تأريخ ابن الأثير ٣: ٢٩١،
 - ٦ - تأريخ ابن الأثير ٣: ٢٩١،
 - ٧ - مقتل الحسين للمقرم: ٢٩٧،
 - ٨ - حياة الإمام الحسين ٣: ٢٣٩،
 - ٩ - سورة ال عمران: ٣٣،
 - ١٠ - تأريخ ابن الأثير ٣: ٢٩٣،
 - ١١ - مقتل الخوارزمي ٢: ٣٠،
 - ١٢ - مقتل الخوارزمي ٢: ٣٠،
 - ١٣ - حياة الإمام الحسين ٣: ٢٤٧،
 - ١٤ - مقتل الخوارزمي ٢: ٣١،
 - ١٥ - مقتل المقرم: ٣١٦،
 - ١٦ - نسب قريش: ٥٧،
 - ١٧ - حياة الإمام الحسين ٣: ٢٤٩،
 - ١٨ - المعارف: ٢٠٤،
 - ١٩ - حياة الإمام الحسين ٣: ٢٥٥،
 - ٢٠ - البداية والنهاية ٨: ١٨٦،
 - ٢١ - حياة الإمام الحسين ٣: ٢٥٦،
 - ٢٢ - مقتل الخوارزمي ٢: ٢٨.
- ص: ١٢٠

٢٣ - الإرشاد: ٢٦٩.

٢٤ - مقاتل الطالبين: ٨٢.

٢٥ - تأريخ ابن الأثير ٣: ٢٩٤.

٢٦ - حياة الإمام الحسين ٣: ٢٦٢.

٢٧ - الإرشاد: ٢٦٩.

٢٨ - مقاتل الطالبين: ٨٣.

ص: ١٢١